www.ibtesama.com

إبراهيم الكوني

وطن الرؤى السماوية

مجلة الابتسامة

قصص ـ أساطير

منتدى مجلة الإبتسامة
www.ibtesama.com
مايا شوقي

الدار الجماهيرية
للنشر والتوزيع والإعلان

www.ibtesama.com

منتدى مجلة الإبتسامة
www.ibtesama.com
مايا شوقي

www.ibtesama.com

منتدى مجلة الإبتسامة
www.ibtesama.com
مايا شوقي

وطن الرؤى السماوية

www.ibtesama.com

منتدى مجلة الإبتسامة
www.ibtesama.com
مايا شوقي

www.ibtesama.com

إبراهيم الكوني

وطن الرؤى السماوية

قصص ـ أساطير

الدار الجماهيرية
للنشر والتوزيع والإعلان

www.ibtesama.com

الطبعة الثانية: النوار 1428 ميلادية
رقم الإيداع: 3089 / 97 ـ دار الكتب الوطنية ـ بنغازي

جميع حقوق الطبع والاقتباس والترجمة محفوظة للناشر
الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان
مصراته: ص.ب. 17459 ـ برقي: 30098 هاتف: 614418 ـ بريد مصور 614816 ـ 051
الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى

www.ibtesama.com

وطن الرؤى السماوية

«لقد كانت الصحراء دائماً وطن الرؤى السماوية».

روبرت موزيل
«الإنسان بدون مزايا»

www.ibtesama.com

منتدى مجلة الإبتسامة
www.ibtesama.com
مايا شوقي

www.ibtesama.com

1 ـ السَّفر

استمرت الصحراء تتمدّد وتتباعد طوال السّفر. العراء الفسيح، القاسي، الأبدي، يلد في نهايته أفقاً لئيماً. والأفق يلد، بعد مسير، الأفق. وكلّما توغلا في الرحلة، كلما ازداد الأفق خلوداً، وإصراراً على التوالد. في البرزخ الممدود بين العراء والأفق تدفق السّراب، ومدّ لساناً لعوباً لا يتوقف عن الغمز والتغنج والإغواء. كأنّ العناصر الثلاثة تآمرت، في حلف خفيّ، وصمّمت أن تجعل من رحلتهما سفراً أبديّاً. فطوال أيام وأيام من الامتداد والكشف والعُريّ، لم ترتفع قامة لرابية، ولم يفضح الأفق خيالاً لرتمة أو طلحة أو شبح غزال، كما لم يتنازل الخلاء المكابر فينحني، راكعاً إلى أسفل، ليفضي إلى وادٍ. مضى يتغطّى بسجّادٍ من الحصى، ويتكسّى بطبقة رقيقة من الحجارة حرقتها نار الشّمس الخالدة. فوق السّطح المكشوف، العنيد، لم تنبت عشبة واحدة طوال الأيام الماضية.

في العُلا انحنت فوقهما سماء جرداء، صارمة، تتخلّلها، من حين

www.ibtesama.com

لآخر، سحب عزلاء، تائهة. في النهار تستبد الشمس مهدّدة بعذاب يتمرّد على طبيعة ذلك الوقت المبكّر من فصل الربيع. وفي الليل تسود النجوم في عناقيد كبيرة وتظل ترقص ابتهاجاً بغياب الشمس حتى يدركها نور الصّباح.

في النهار يرحلان ركوباً على ظهر المهري. يجلس الأب على السّرج المنصوب أمام السّنام، في حين أعدّ له مقعداً آمناً في الفج الخلفي الذي يقسم الظّهر ويجاور السّنام من وراء. يرحلان في الليل أيضاً عندما يطلع البدر، ولكن الأب يؤثر أن يقطع المسافة مشياً، فيقود المهري ويتركه جالساً في الفجّ يسمع السكون ويغالب النّعاس.

ولكن الأب لا يتسلّى بالغناء إلا إذا كان راكباً.

يتنهّد بفجيعة ثلاثة مرّات متتالية. يتعلّق بالأفق العنيد زمناً. ترتخي الأعضاء المشدودة وتتراخى عن شدّ اللّجام. يتحرر عنق الجمل فيمد رقبته إلى أمام ويباعد بين خطواته. ولكن العراء لا ينتهي، والأفق لا يستسلم، والسّراب لا يتوقف عن الإغراء والسخرية. لحظتها يرتفع الصوت الوحيد الذي يقهر العراء، ويركّع الأفق، ويدرك السّراب؛ ينطلق الصوت خافتاً، خجولاً، متمهلاً، واعداً بالفجيعة. يظل يعلو ويتمادى حتى يتواصل في الموّال الشّجني الحزين: ديـ يـ يـ دا ـ ا ـ ا ـ ا ـ ه...

يتوقف السراب عن العدو. يتراجع العراء. يُقْبِل الأفق. تقترب السّماء من الأرض، ويسكت الكوكب الصحراوي ليتنصّت...

يستمر الموّال الأبوي الفاجع طويلاً.

www.ibtesama.com

وعندما يتوقف يهرب العراء من العراء. يتوالد الأفق من الأفق. يركض السّراب ويتلاعب بلسان اللؤم والسّخرية. تبتعد السماء في الفضاء وتهرب الصحراء من الصحراء. وتلبس المتاهة قناع القساوة والصرامة.

تتواصل الرحلة ولا يبقى من الغناء إلاّ الفجيعة وحدها. بعد الأغنية يكتئب الأب طويلاً. يصوم عن الكلام زمناً قد يستمر حتى نهاية المشوار في ذلك اليوم. يتجاهل أسئلته ويغيب في السّكون. يظل ثابتاً فوق السّرج، مشدوداً إلى الأفق العنيد، غير عابىء بدعابات السّراب.

في اليوم العاشر تعب الطّفل وسأل الأب:

ـ أما زال الطريق طويلاً؟

تباطأ الأب في الجواب:

ـ وهل أردت أن تبلغ واو بين يوم وليلة؟

ـ هل هي بعيدة إلى هذا الحدّ؟

ـ واو أبعد من كانو وأقرب من حبل الوريد.

ـ لا أفهم.

ـ هذا ما يقوله الدراويش، ولكن لا بد أن تشقى في الحالتين.

ـ لا أفهم.

سكت الأب. شهق بالفجيعة ورفع صوته بأغنية أليمة.

أراد الصّبي أن يجد المبرر لتسرّعه فانتظر حتى انتهى الأب من الموال فقال كالمعتذر:

www.ibtesama.com

ـ أردت أن ألقى جدّي بأسرع وقت. هذا هو السّبب.

فتمتم الأب باقتضاب:

ـ أعرف.

ولكن الإبن لم يتوقف عن السؤال في ذلك المساء. قال:

ـ حدثني عن جدّي!

تحدّث الأب:

ـ لم أره منذ زمن طويل جدّاً.

في الأفق برز الشطر العلوي من قرص البدر. تابعه الطفل وهو يتمرّغ في برزخ العراء. وعندما اكتمل ورآه يتحرّر من يد الصحراء قال:

ـ حدثني عن واو.

ـ واو وطن مفقود.

ـ مفقود؟

ـ ولكن هذا لا يعني أنها لا تفتح أبوابها لاستقبال الذين يجدّون في البحث عنها. إذا تعبت هربت منك وإذا صبرت وصلت.

ـ وأنت؟ هل سبق لك ودخلت واو؟

سكت الأب لحظة. قال:

ـ كيف أشرح لك؟ واو وطن فريد بين الأوطان. ثمة من يحملها في قلبه ويهاجر بها. وثمة من ينفق عمره طلباً لها.

www.ibtesama.com

تنحنح بحدة ثم أضاف:

- ولكن دعك من هذا. فأنا لم أشأ أن أذهب وأتركك وحيداً في الواحة. لأنني إذا دخلت إلى واو فمن الصّعب أن أخرج منها ثانية.

- لماذا؟

- ماذا أقول لك؟ لكل أرض مزايا. هذه مزيّة من مزاياها. ولكن قل لي. . . .

سكت قبل أن يضيف:

- ألست سعيداً بأنني لم أتركك في الواحة وأذهب وحيداً إلى واو؟

- طبعاً.

- ألم يتعبك السفر؟

- أبداً.

- أحسنت. راهنت دائماً أن تكون صبوراً. الرّجل لا بد أن يتعلم التعب إذا أراد أن ينتمي إلى الصحراء.

- قلت لي ذلك كثيراً.

- هذا ما لن أملّ من تكراره.

- ولكنك لم تحدثني عن واو. جدّتي تقول إنّها وطن الجنّ.

- أهل الواحات لا يرون في الصحراء إلا الجنّ، ويزعمون أن أهلها أنفسهم أشباح.

www.ibtesama.com

غالب الابن ضحكة وهو يقول:

- جدّتي تقول ذلك أيضاً.

- لا تستمع لما تقول، يجدر بك أن تتباهى بالانتماء إلى الصحراء. هل أنت فخور بأنك ابن الصحراء؟

أجاب الابن بلا تردد:

- طبعاً.

- أحسنت. هذا يعني أن واو ستفتح لنا أبوابها.

- ...

- هذا سيروق للحاجب. يقال إنه لا يفتح الأبواب إلا لعشاق الصحراء.

- حقاً؟ ظننت أن الباب يحرسه الثعبان دائماً.

- ثعبان أو حيّة أو ضبّ. القناع لا يهم. يروق له أن يلبس ثياب ثعبان.

- قلت لي مرّة أنّ الثعبان عدوّ، لأنه طرد الجدّ من وطنه واو.

- عدوّ وصديق. عدوّ لأنه شرّدنا، وصديق لأنه يشفق علينا من التّيه ويفتح لنا أبواب واو في أية لحظة يشاء.

هرش الطفل رأسه الذي يشقّه الشَّعَر كعرف الدّيك. سأل بعد تردد:

- ماذا يفعل النّاس في واو؟

www.ibtesama.com

- لا أدري. الصحراوي نسي منذ خرج من هناك. النسيان لعنة المشرّدين.
- هل هم سعداء؟
- لا شك في ذلك. لو لم يكونوا سعداء لما قتلهم الحنين شوقاً للعودة.
- جدّتي تقول أن أهل الصحراء أشقياء و واو لا وجود لها.
- لا تستمع إلى جدّتك أبداً إذا أردت أن تنتمي إلى الصحراء. أهل الواحات يقولون ذلك لأنهم عبيد.
- قالت لي عندما خرجنا: «تذكّر أنّ واو هي السّراب. أبوك ضائع ولا يعرف ماذا يريد». هكذا قالت.

سكت الأب. أنصت للسكون. طلع البدر فوق الأرض قامة. تكلّم الأب:

- تقول ذلك لأنها لا تريدك أن ترافقني إلى واو. جدّتك تريد أن تشدّك إلى الأرض لتصبح عبداً مثلها.
- لا أفهم.
- من الصعب أن تفهم ذلك قبل أن تصبح صحراوياً. ولكن تذكّر أن كل من أمسك معزقة وخدش الأرض فهو عبد. كل من بنى كوخاً وسكن بجوار العين فهو عبد.
- لماذا يا أبي؟
- من الصّعب أن تفهم ذلك قبل أن تصبح صحراوياً. الإنسان في

www.ibtesama.com

الصحراء لا بد أن يكون إما نخلة مشدودة إلى الأرض بالجذور، وإمّا ريح القبلي التي تهاجر دائماً. الفلاح هو النخلة، والصحراوي هو القبلي الذي لا يتوقف عن السفر. فأيّهما أنبل؟

- القبلي!

- أحسنت. أيّهما تختار؟

- القبلي!

- أحسنت.

سكت الأب فسكت الابن. قطع البدر أشباراً أخرى فتوغلت الصحراء في الجلال والسكون.

قال الأب بلهجة غامضة:

- ليس الفلاح عبداً لأنه يعشق الأرض، ولكن لأنه يقبع في الكوخ منتظراً منها الإحسان!

هتف الطّفل بدهشة:

- الإحسان؟

- كل من انتظر عطيّة فهو عبد. العطيّة قيد حتى لو كانت من الأرض.

- . . .

- حياة الفلاح كلّها انتظار للعطيّة. للخبز. للقمة المسمومة!

www.ibtesama.com

هتف الابن باستنكار:

ـ مسمومة؟

فقال الأب بهدوء:

ـ كل لقمة تستعبد الرّجل فهي سمّ أسوأ من سمّ الحيّة.

ـ والصحراوي؟ ألا ينتظر الصحراوي عطيّة الأرض؟

ـ أبداً. الصحراوي يتغطى بالسماء المرشوشة بالنجوم، ويتوسّد العراء المفتوح. يتنقل كالغزال، ولا يركع لمكان. إنه طليق مثل الطير وليس رهينة تنتظر حلول موسم الحصاد في الكوخ.

من الشمال هب هواء البحري. شدّ اللّجام فتشكّى الجمل ألماً. ترجّل الأب بوثبة واحدة. قال وهو ينيخ الجمل:

ـ هنا سنبيت ليلتنا.

2 ـ الزعيم

قبل السفر بشهور رحل إلى القبيلة وحاور الزعيم.

وجده يتربّع على الكليم، يستظل من نار الشمس بحضيض الخباء الشرقي. ينتهك الموقد بالمسعر ويعدّ شاي العشيّة بنفسه. جالسه طويلاً. تحدّثا في كل شيء: الجفاف وأخبار السيول. المجاعة والتّجارة. الغزوات وغارات القبائل المعادية. النّبل والعار. الصحارى والواحات. البطولة والجبن. آنهي الأرض و واو السماء. الحرية والذلّ. الحياة والموت.

www.ibtesama.com

زحفت العتمة فبدأ:

- تحدثنا منذ قليل عن قبح العبودية...

قطع الجملة فحدجه الزعيم بنظرة استفهام. واصل:

- الحق أني لا أريد لأبني أن يمتهن الفلاحة فتقع ذريتي، من بعدي، أسيرة الأرض.

بالمسعر رسم الزعيم رموزاً غامضة على الأرض. كشفت عيناه ابتسامة متسامحة. ابتسامة حكيم صبور عندما يروّض ولداً شقيّاً. رفع رأسه فجأة وقال باقتضاب:

- كلّنا إلى الأرض. حتى لو طار العبد إلى السماء فإنه يرجع إلى الأرض. ليس ثمة مخلوقات أكثر حرّية من الطيور ورغم ذلك فإنها تموت على الأرض.

هتف كأنه انتظر هذا الاحتجاج:

- انتظر! لا يحمل كلامي إدانة أو إهانة للأرض. ولكن هناك فرق أن تتنقّل وتهاجر كالطائر في الصحراء الواسعة، وبين أن تمزّق وجه الأمّ بالمحراث وترابط في الكوخ طوال الحياة لتتلقّى منها الإحسان.

ابتسم الزعيم مرّة أخرى فواصل المفاضلة بين الأرض والسماء:

- وحتى عندما يتعب كوز الطّين ويبيد وتقترب الساعة التي يتحرر فيها عصفور النّور من وزره فإن الأرض لا تأخذ إلاّ كوم

www.ibtesama.com

العظام. أما العصفور فيطير إلى واو.

- أنا لا أفهم لغة القادرية. ولكن عشق الصحراء لم يعلمني احتقار الأرض مثلك.

- إنه ليس احتقاراً للأرض، ولكنه احتقار للعبودية. فالنخلة مكابرة، صبورة، متسامحة، ترميها بحجر فتردّه إليك تمراً رطباً، ولكن جذورها مشدودة إلى التراب. السرّ في الجذور.

هزّ الزعيم بالمسعر في وجهه:

- نعم. السرّ في الجذور.

- أردت أن أقول إنها جذور الذلّ.

- ولماذا لا تقول إنها جذور الحياة؟ لولا هذه الجذور لما أطعمتك رطباً.

- آه لو كانت النخلة بلا جذور!

- لا شيء بلا ثمن. الجذور التي تسبح في الفضاء لا تعطي التّمر.

ترنّح كالمجذوب قبل أن يتمتم بنبرة فاجعة:

- ما أقسى الجذور التي تهبنا التّمر وتضع في أيدينا القيد! ما أقسى الجذور التي تعطينا الحياة مقابل أن ترانا مكبلين بسلسلة طولها سبعين ذراعاً. ما أجمل النخلة لو بقيت سابحة في الفضاء بقامتها المكابرة، الحسناء.

سأل الزعيم ساخراً:

www.ibtesama.com

ـ وكيف ستملأ الشكوة الجوفاء التي تحملها بين السُّرة والصدر؟

ولكنه مضى في شطحته:

ـ سأجوع. سأجوع مثل دراويش القادريّة.

ـ الجوع هو الذي سيجبرك على الاعتراف بالنخلة نزيلة الأرض.

ـ شيخ الطريقة يقول إن الجوع ينصر العصفور ويخلّصه من استعباد البدن. لقد جرّبت في الواحة وتهيأت أيضاً لأن أطير. ولكن شيخ الطريقة قطع صيامي وقال لي أن الأوان لم يحن بعد. لأن المريد لا بد أن يعبر قنطرة اسمها الحياة إذا أراد أن يأتي إلى الخلاص من أقصر طريق.

ـ لا أفهم في أسرار القادرية، ولكن اليقين أنّك لن تستطيع أن تقطع الجذور بالأرض ما دمت تحيا على الأرض. القيد إتاوة يدفعها كل حي ما دام على قيد الحياة.

ـ ولكن الصحراويين لا يدفعون هذه الأتاوة.

هنا ضحك الزعيم لأوّل مرة بالصّوت المسموع:

ـ لا يدفعون الإتاوة حقاً، ولكنهم لا يحيون أيضاً. من قال لك أن الصحراويين أحياء؟!

ـ الدراويش يقولون إنهم أطياف والفلاحون يقولون إنهم جنّ!

استمرّ الزعيم يبتسم بغموض. عمّت العتمة. زحف نحو الموقد ومدّه بالحطب.

www.ibtesama.com

تربّع وبدأ يعدّ شاياً جديداً. تجهم فجأة قبل أن يقول:

- دعنا الآن من شريعة الواحات وتعال معي إلى عقيدة الصحراء. أنت تعرف أن القبيلة لن تقبل ابن الأغراب حتى لو أراد الزعيم ذلك.

استنكر القساوة:

- ولكنه ابني!

فمضى الزعيم بنفس البرود:

- الابن ابن أمّه. الابن يمشي وراء أمّه حتى لو كان ابن الزّعيم نفسه. هذه شريعة ورثناها عن الأسلاف، ولم يبتدعها الزعيم.

قال بصوت كالتوسّل:

- ولكنه سيضيع في الواحة. سيصبح فلاّحاً. عبداً. هل يرضيك أن أسلّم ابني الوحيد للذلّ؟

- لست أنا من اخترع الشريعة. والزّعيم يكف عن أن يكون زعيماً في تلك اللحظة الجنونية التي يخالف فيها تعاليم الأسلاف.

- ولكنّك تعرف أني مهاجر وحيد ومعلول، ولا أستطيع أن أصنع منه رجلاً صحراوياً إلا في القبيلة. ثم.. ثم لا تنس أنه يتيم الأمّ. هو وحيد مثلي...

- التعاليم تقول أن الرجل يدفع ثمناً قاسياً إذا وافق هواه. أظنّ أن

www.ibtesama.com

دراويش القادرية أيضاً يقولون شيئاً من هذا القبيل. أردت أن أقول أن الرجولة تقضي بأن نتحمّل ثمرة الهوى. وأنت تعرف متى ارتكبت الخطأ.

هيمن صمت. توجع الحطب في النّار وشحن الصمت بمزيد من التوتر.

قال:

- أعترف أن ذلك كان خطأ. ولكنه خطأ مبرّر. أقمت في الواحات طلباً للعلم والحق. والإنسان لن يظل بلا امرأة إلى الأبد حتى لو أراد.
- سوف نختلف هنا. أنا أرى أن على الرجل ألاّ يتخذ امرأة إذا أراد ألاّ ينجب عبيداً.
- ولكن الصحراويين ينجبون ذرية للحرية.

هبّ الزعيم:

- ذريّة للخلاء. للفناء. ما هي الحرية إن لم تكن فناء؟ ما هي الصحراء إن لم تكن فناء؟ ألم نتفق منذ قليل أن الصحراوي هبّة ريح في الهواء، وهباء في الفناء؟ ألم نتفق أن الصحراوي، لهذا السبب، لا يحيا؟

سكت ثم أضاف بيقين:

- من جاء بذريّة من امرأة الأغراب فعليه أن يدفع الثمن بروح

www.ibtesama.com

راضية.

- ما أقسى الثمن عندما يكون عبودية!

- أيّهما أقسى: العبودية أم الفناء؟

أجابه يومها بلا تردّد:

- العبودية.

وكرّر:

- العبودية يا جلالة الزعيم.

تكلّم الزّعيم بعد صمت:

- أعرف أن شيخ الطريقة زيّن لك الصحراء وشبّه لك الفناء نعيماً. يقال إن أتباع الطريقة القادرية يرون في الفناء نعيماً. بحثوا عن الفناء في السماوات إلى أن وجدوه على الأرض، في الصحراء. بعضهم يعشقون الصحراء أكثر من أهل الصحراء أنفسهم، هذا ما فتنك وغذّى فيك السّفر.

- لم يغذّ في النزوع إلى السفر غير الصحراء. في السفر دواء علّتي.

- لا دواء للعلّة عندما تكون في الصّدر.

بدأ يخلط الشاي ويصنع الرّغوة وأضاف:

- ولا حماية للذرية من العبودية غير قهر الهوى والزّهد في المرأة!

www.ibtesama.com

هتف موافقاً:

- صدقت. الاقتران أصل البلاء، ولكن لا تظن أن الرّجل يرتكب هذه الحماقة بدافع الرغبة دائماً. رجال كثيرون يفعلون ذلك لا لشيء إلاّ لأنهم ورثوه عن آبائهم.
- والآباء يقولون إنهم ورثوه عن الأجداد، والأجداد يقولون إنه وحي سماوي يحمي الحياة من الزّوال.
- هذا الوحي السماوي الوحيد الذي على الإنسان أن يكفر به.
- أستغفر الله.

مدّ له الشاي في كوب خشبي. اقترب منه الزّعيم وقال:

- حتى لو خالفت الشريعة وقبلته في القبيلة فإنه سيعيش منبوذاً. عبداً.
- أن يعيش عبداً في الصحراء أهون من أن يعيش فلاحاً في الواحات.
- أنت تخطىء وتعتدي على الناموس الحكيم. إذ ما هي الأم إن لم تكن الأرض؟ كل الثّمار تنضج بمساعدة الأرض، وكل ثمرة هي جنين للأرض. اللّقاح يأتي به الريح طائراً في الهواء، ولكن البلح ينضج في النخلة المشدودة إلى الأرض بالجذور. دور الرجل أيضاً عابر. فلماذا تلوي العصا في يد الناموس ولا تريد أن تتخلى للأم عن جنينها الذي ولدته؟
- ولكن أنت تعلم أن أمّه ماتت.

تضاحك الزعيم باستخفاف:

www.ibtesama.com

ـ وأنت تعلم أيضاً أنها حيّة فيه.

ثم اقترب منه مرة أخرى. مال نحوه برأسه حتى سقط طرف عمامته على منكبه. قال:

ـ سأذيع لك سرّاً. أنا أريد أن أخفف عليك فاسمع سرّي.

سكت فجأة. تمهّل لحظة ثم أذاع السرّ:

ـ أنت لا تعلم أن لي ابنة من امرأة زنجية.

ـ لا!.

ـ عقدت عليها في كانو منذ زمن بعيد. كنت أقوم برحلة تجارية وأنا في عمر الهوى والحماقات. راقت لي فتزوجتها. أنجبت بنتاً. والبنت الآن في عصمة زنجي.

ـ لا!

ـ نعم. نعم. ولي حفيدة زنجية. هل تصدّق أن حفيدتي زنجيّة؟ هذا هو الثمن الذي دفعته مقابل خطأ الهوى. مصيبتك أهون بكثير كما ترى.

ـ ولكن كيف وافقت أن تزوّج الفتاة لزنوج الأدغال؟

ـ وماذا أفعل بها؟ إنها ابنتهم. لم أرد أن أخالف شريعة الكوكب الصحراوي.

ـ شريعة قاسية!

ـ أنت ترى أنها قاسية وأنا أرى أنها حكيمة. فحتّى لو خالفت وجئت بها إلى القبيلة فإن حظّها لن يكون أفضل. لن يقبلها

www.ibtesama.com

زوجة سوى زنجي. فآثرت أن أدفع أهون الأثمان وأدفن عاري هناك.

هيمن السكون.

في النار توجّع الحطب.

3 ـ الخروج

عندما كان يخرج للمراعي وراء الجديان، يجلس فوق الرابية، يراقب الأفق المدهش، وينوح. استمرّت المناحة فوشى به الأقران للأب. في ليلة امتلكها البدر عاتبه بعد العشاء:

ـ لا تبحث عن شيء وراء الأفق. الأفق صديق السّراب. يتهامسان ويتآمران ويرتبان المكيدة. إنهما يعدّان لك مكيدة.

لم يرد فواصل العجوز:

ـ الأفق مثل «سخرك ايبراضن»[1] فاحترس!

راقبه طويلاً، تحت ضياء البدر، ولكنه لم ينطق، فتكلّم الأب:

ـ ألا تصدقني؟ إسأل العرّاف عن الأفق إن كنت لا تصدقني.

لم يذهب لمساءلة العرّاف، فجاء العرّاف بنفسه. زاره فوق الرّابية بعد أن أنصت لمناحته وهو يتخفّى بين أشجار الرّتم في الوادي. وقف فوق رأسه طويلاً قبل أن يتقرفص ويتكلّم:

---

(1) سخرك ايبراضن: طائر ملوّن يتدرج الصغار إلى الصحراء.

www.ibtesama.com

ـ كلّنا نعشق الأفق. كلنا ننوح حنيناً لما وراء الصحراء.

سكت لحظة ثم سأل فجأة:

ـ هل تشتاق للمجهول مثلي؟

هزّ رأسه بالإيجاب فسأل نبي الغيب:

ـ هل تقول الشّعر؟

هزّ رأسه بالنّفي فاقترح العرّاف:

ـ يجدر بك أن تحاول. الشّعر لغة المجهول. الشّعر صوت الحوريات. تمتمة الجنّيات. شكوى القبلي. سرّ التّرفاس وإيماءة الزهرة في شجرة الرّتم. لا يستطيع الصحراوي أن يقهر السّراب، المتآمر مع الأفق، بدون شعر.

سكت فتكلّم النبي:

ـ هل تجذب في أمسيات السّمر؟

هزّ رأسه بالنفي فاقترح علاّم المجهول:

ـ الوجد نعمة أخرى. اسقط في الوجد وارقص مع النّغم. في هذا أيضاً شفاء.

ولكنه لم يقل الشعر، لم يذهب لميعاد الصبايا ليسمع النّغم ويقع في الوجد. آثر الخروج والالتحاق بالأفق.

كبر معه الحنين واشتدّ. في صباه قال له حكيم الرّعاة:

www.ibtesama.com

ـ احترس. الصحراء كوكب فريد. من خرج منه ضاع. هل تعرف لماذا يضيع؟

ألقى في فمه بحفنة من التبغ. قضم من الطرونة قطعة صغيرة وشرع يلوكها مع المضغة.

أضاف وهو يحكم الرّباط حول صرّة التّبغ:

ـ لأن حدود الصحراء هي الهاوية التي يتحدث عنها الفقهاء. لا شيء وراء الصحراء سوى الهاوية، فاعلم واحترس!

ولكن نداء الخروج كان أقوى فلم يحترس.

خرج مع قافلة وزار الأفق. ابتسم في وجهه السراب وسلّمه لآفاق أخرى. وعده بآفاق أخرى. يتغنّج، ويتدلّل. ويطلع لسانه ساخراً. يبتعد كلّما اقترب منه كلما يفعل «سخرك ايبراضن» في مناوراته ومداعباته وشقاوته وشيطنته. صدق الوالد: السّراب و«سخرك ايبراضن» قرينان. توأمان، خلقا لترتيب المكيدة نفسها.

نزل الواحة.

التحق بالزاوية القادرية ليجرّب الخروج الثاني. الخروج الحقيقي. الخروج من الظلمات، من جحيم البدن، والالتحاق بنعيم المعرفة والروح. هنا تعلّم ضرورة الخروج. شيخ الطريقة أيضاً قال إن الخروج هو حجر الزّاوية في الطريقة القادرية. فمن لم يخرج لم يجرّب. ومن لم يجرّب لم يعرف، ومن لم يعرف لم يشق، ومن لم يذق طعم الشّقاء لم يدخل باب الفردوس.

www.ibtesama.com

حدّثه كثيراً عن الحنين والمجهول والسّراب والغناء والشّعر والفناء. ولكنه أكّد أن كل شيء يبدأ بالخروج.

وكي يبدأ بتعلّم هذا السرّ حبسه في حجرة ظلماء بالزاوية شهراً كاملاً. وعندما فتح له الباب وأذن له بالخروج قال له: «لن يخرج من غيهب النّفس من لم يتعلّم كيف يقف مع نفسه وجهاً لوجه». وقد اعترف للشيخ بعد زمن طويل أن تلك التجربة كانت أقسى امتحان في رحلته كلّها. وكان يبتسم بغموض وهو يسمع الخفاء في لغة الشيخ، فينتهر المريد الدّاخل إليه: «اخرج!» ويصيح في المريد الذاهب للخروج: «ادخل!». وهي لغة ذكرته بأساليب العرّافين في المخالفة وتسمية الأشياء بعكسها. قرأ الشّيخ أفكاره فقال له: «اعلم أن الدّاخل إليك لن يكون جليسك بحق ما لم يخرج من سجنه. من نفسه. واعلم أن الخارج منك إلى الدنيا لن يهتدي إلى الصراط ويعرف ماذا يريد ما لم يتحصّن بنفسه من السّوى».

بعد ثلاث سنوات من الوجد والدّرس والحبس رأى الشيخ أن الجمرة في قلبه لم تنطفىء فقال له:

- المخالطة من آداب المجاهدة أيضاً. ومن لم يخرج إلى النّاس لن يخرج إلى باب الفردوس. فاخرج إليهم، وعاشرهم، واعرفهم، وعش الحياة أوّلاً.

خرج إلى النّاس فكانت المرأة في انتظاره.

لم يكن يعلم أن الأنثى هي الشرط الأوّل للخروج، والزواج هو

www.ibtesama.com

الإتاوة الأخرى التي يدفعها كل من أراد أن يعاشر النّاس ويمارس الحياة.

حرث الأرض وأمتهن الفلاحة. اجتهد في عمله ففاز بثقة صاحب الأرض. صادقه وزوّجه ابنته الوحيدة. جاهد نفسه في الأرض، وفي الناس سنوات أخرى. تعلّم معنى أن تزرع وتجلس في الكوخ منتظراً الإحسان من الأرض. وعرف أيضاً وجه الشّبه بين المرأة والأرض.

عادت الجمرة تتوهج فناح في سرّه. صمّم أن يحطم القيد ولكنه اكتشف أن المرأة تشدّه إلى الأرض بسلسلة أطول من السبعين ذراعاً. أنجبت له الولد كي تستعبده بالنّسل كما حاولت الأرض أن تستعبده بالخبز. ولكنه اكتشف أيضاً أن الحنين يزداد، ووهج الجمرة يتضاعف ويشتد كلّما اعترضه قيد في طريق العبور والانطلاق. عاند وجاهد وذهب إلى الخلوة في أطراف الواحة وتلوّى ليالٍ كثيرة قبل أن ينتصر الوهج ويقتنع بقطع الجذور.

ذهب إلى القاضي وعاد بورقة الطّلاق، بوثيقة الخلاص. بعث بها إلى المرأة مع أحد الفلاحين وذهب إلى الزاوية ليجتمع بشيخ الطريقة. عبث الشيخ بلحيته الوقورة وقال بغموض:

ـ كيف وجدت الدنيا؟

أجاب بقسوة:

ـ في أسوأ حال. أسوأ مما ظننت!

تكلّم الشيخ بنفس الغموض:

www.ibtesama.com

ـ هذا حال الدنيا. ولكن الخروج إليها يبقى شرطاً من الشروط.

ردّ بغضب:

ـ ولكنه من أقسى الشروط.

قال الشّيخ بتسامح:

ـ ماذا ظننت؟ هل ظننت أن بإمكان المريد أن يطرق باب النعيم دون المرور بجحيم النّاس؟ هل ظننت أن الفوز بالجنّة يسير إلى هذا الحدّ؟

ثم أخرج مسبحة صنعت حبيباتها من الأبنوس الحبشي وأضاف بلغة الطريقة:

ـ ولكن الطريق أمامك ما زال طويلاً كي تفهم.

لم يستطع أن يضبط النّفس فسأل بدهشة:

ـ هل ما زال الطريق طويلاً حقّاً يا فضيلة الشيخ؟ ظننت أنّي....

ابتسم الشيخ. توقفت أصابعه عن دحرجة حبّات المسبحة. اتّسعت الابتسامة. انتفض منكباه الجليلان، غالب الضحك. بل أن الشيخ الجليل يضحك. ضحكة حقيقية. بصوت مسموع. بصوت مرتفع. لم يره أبداً وهو يضحك. لم يسمعه مخلوق وهو يضحك. كانت الابتسامة لغته الوحيدة. ضحكته الوحيدة. أما الضحك في شريعته فهو تجديف. الضحك رجس من عمل الشيطان. فما الذي

www.ibtesama.com

جعله ينتهك الحرم ويكركر بالضّحك؟

مسح دموعاً بكم جلبابه واستغفر وقرأ بعض الأَوْرَاد قبل أن يقول:

- أضحكتني. ما كان يجب أن تفعل ذلك. ولكنّك طفل. طفل كبير. ولكن الطفولة لا تضير الرّجل. بل إن كل الرّجال العظام هم أطفال كبار. ولكن اعلم أيضاً أن الطريق لم ينته بعد. بل لم يبدأ بعد. الطريق ما زال طويلاً.
- ولكنني تألمت كثيراً يا فضيلة الشيخ.
- وماذا تظن؟ الألم هو الحياة. الألم شرط الميلاد.
- شرط الميلاد؟
- يولد الإنسان للألم. ولا يبعث الإنسان إلاّ بالألم. لا يولد مرّة أخرى إذا لم يتألّم.

سكت ثم همهم لنفسه:

- الألم شرط الوصول. الويل لمن لم يتألم.
- الويل لمن لم يتألّم؟

ابتسم الشيخ مرة أخرى. قال:

- إذا لم يتألم الإنسان فقد مات غافلاً.
- السوّى تقول العكس: من مات بلا ألم فقد عاش حياته سعيداً.

www.ibtesama.com

ـ لو كان السوّى يعرفون معنى الألم لما كانوا سوى. لا يليق بالمريد أن يحاجج بلغة السوّى.

توقف الحوار. رفع الشيخ إليه نظرة مستفهمة فعرف المريد أنه قرأ أفكاره مرة أخرى. قال الشيخ:

ـ السّير أيضاً طريقة من طرق المجاهدة، فحدثني بم انتويت.

ـ حقّاً؟

ـ إذا غلبك الحنين فسِرْ إليه لأنه يدعوك.

ـ حقّاً؟

ـ هاجر إليه. سرْ في الأرض. امضِ. اعبر. ولا تتوقف حتى يفتح لك الباب.

ـ حقّاً؟

ولكن الشيخ أغمض عينيه وغاب في الأوراد.

خرج من الواحة وسار في الصحراء سنوات.

استمرت المسيرة منذ ذلك اليوم.

طاف الصحراء كلها، ولكنه لم يتوقف عن السّفر. يهجع في العراء. أو يبيت تحت شجرة برّية ويهيم في الخلوة، حتى إذا هتف الهاتف، وسمع النداء، هرع إلى الجمل وأسرجه وسلّم نفسه للأفق المتحالف مع السّراب. في ذلك الوقت شبّ الولد وماتت أمّه ملدوغة بعقرب. رأى أن ينقذ نسله من استعباد الأرض وأذى العباد،

www.ibtesama.com

فذهب للتشاور مع الزعيم. هناك تلقّى صدمة أخرى. هاله أن يترك الولد عبداً في يد قبيلة لا ترى في أبناء المرأة الغريبة إلاّ عبيداً وأغراباً فهل يستبدل استعباد الفلاحة باستعباد القبيلة ويستجير من الرمضاء بالنّار؟ أليس استعباد الأرض أهون من استعباد الخلق؟ ألن يكون بقاءه بين يدي جدّته أرحم وأهون الخيارين؟

طاف كثيراً. هاجر طويلاً قبل أن يهتدي إلى الخيار:

«ماذا لو رافقته إلى واو؟».

سمع النّداء في حفيف القبلي، في هتاف الحنين الخفي، في استدعاء الأفق، وإغواء السراب اللعوب. في البداية تجاهله. استبعده باستنكار، ولكن النّداء ارتفع. فهاجر. سافر في الأفق كما تعوّد في الماضي عندما تستبد به شهوة أو يستولي عليه هاجس. تراجع الخاطر في الأيام الأولى، ولكنه ما لبث أن وجد الطريق إليه حتى في سفره. توقّف وصمّم أن يبحث عن السبيل في المواجهة. عرف في هجرته مسلك واو. بحثه الطويل علّمه أن الخروج هو ثمن الدخول إلى واو. الأرض البكر لا تفتح أبوابها إلا لمن وجد في نفسه شجاعة الخروج من الصحراء. في أرض الرؤى والسكينة والخلاص الأبدي التي لا تعترف إلاّ بالشّجعان الذين يشقّون صدورهم ويفتحون لها قلوبهم مقابل أن يدخلوا إليها، في الحرم الموعود. هناك سيضمن الخلاص لنفسه ولذريّته. لن تبقى وراءه نطفته مهدّدة بغول الاستعباد. لن يترك خلفه نسلاً والقيد مسلّط على

www.ibtesama.com

رقبته من السّيف. إذا أخذه معه إلى واو ضمن له السكينة و.. الخلاص الأبدي.

4 ـ التّرفاس

على سلطة السّراب تمرّد خيال وتبدّى. ظلّ يعوم في ألسنة العرف الفضيّ الذي يغمر الأفق ويتلوّى مع تموّجات السّائل الشيطاني اللّعوب حتى قطعوا إليه مسافة أخرى. بدأت الأرض الحمراء تتبيّن في العلامة فسأل الولد مشيراً إلى الأفق:

ـ هل هي واحة من صنع السّراب أيضاً؟

ابتسم الأب:

ـ حاول أن يمحوها ويمزقها ليصنع منها واحة من واحاته الشيطانية، ولكنه لم يستطع لأننا قهرناه بالعناد.

ـ هل هي واحة حقيقيّة؟

ـ إنها الرّابية الحمراء.

ـ هل اقتربنا من واو؟

ـ أظنّ أن أرض واو سوف تبدأ خلف الرابيّة الحمراء.

ـ حقّاً؟

انتصر المرتفع على سلطة السّراب. رفع قامة مكابرة في الأفق فاعتلته مزق من النّار الفضيّة وتسلّقت ظهره في شقاوة. ومضى السّائل الشقي يعارك حتى عندما بلغا الحضيض ووصلا الرّابية.

www.ibtesama.com

انتصف النّهار. هبّ نسيم شمالي مبلل بماء البحر البعيد. ترجّل الأب عن المهري وترك الصّبي جالساً خلف السّرج يتشبّث بوبر السّنام.

قاد الجمل ماشياً. انحرف يميناً ليجتاز الرابية.

خلف الرّابية الحمراء فاح الفردوس.

امتدّ سهل فسيح من الحضيض. في الحواف، المكسوّة بحجارة كثيفة سوداء، نما حزام من الحمّيضة الحمراء. في الأسفل، عبر المنحدرات المائية، التي شقّتها بنات الأرض في موسم المطر، تزاحم الفصيص، أفضت المنحدرات إلى رقع فسيحة مكتظّة بالبابونج والجرجير والشّيح ونباتات أخرى كثيرة يجهل أسماءها حتى الرّعاة. فتحت الرّقع سُبُلاً إلى الوديان السّفلية فأخضر السّدر وأزهر الرّتم وتكاثفت الأحراش البريّة. زقزقت الطيور. وتسكعت الغرانيق في السهل المفروش بالعشب، تضرب الأرض بمناقيرها القانية بحثاً عن الديدان، وتتباهى بقامتها المكابرة. عندما نزلا المنحدر رأى الابن شبحاً مدهشاً: انسلّ من الأحراش ووثب إلى حاشية السّهل بقفزتين رشيقتين. وقف، في الجانب الآخر، مستنفراً. حفر الأرض الطينية بحافره الأيمن في حركة توحي بالتوتّر والارتياب. كائن رشيق. نحيل. طويل القامة. يعلوه زغب ذهبي اللّون. وفي الأسفل، عند البطن، اكتسى اللّون بياضاً ناصعاً. رقبته مديدة، رقيقة، مكابرة. تنتهي برأس وديع وفاتن. فوق الرأس استقرّ قرنان

www.ibtesama.com

صغيران، مرفوعان إلى أعلى. من الرأس أطلّت عينان مدهشتان كحلاوان، علتهما رموش طويلة كحيلة أيضاً.

ظل الحيوان يراقبهما بعينيه السرّيتين لحظات. ثم استدار وطار في الفضاء كالسّهم. قفز في الهواء واختفى.

تابعه الابن بذهول. تطوّع الأب بالتفسير:

ـ إنه الغزال. هل رأيت شاة أجمل من الغزال؟

لم يجب الابن فواصل الأب:

ـ هذا مخلوق لن تراه إلا على أبواب واو.

فاح الرّتم وتضوّع الهواء بأريج الزهور. تنفّس الابن بعمق حتى شعر بالدّوار. أغمض عينيه ليستعيد الغزال ويحفظه إلى الأبد. ولكن الشّبح المدهش فرّ من الخيال كما فرّ من الصحراء، فسأل بلا وعي:

ـ ولكنّك قلت إن الثعبان يحرس الباب وليس الغزال؟

أناخ الأب الجمل وأجاب مع ابتسامة حزينة:

ـ في مراعي واو دائماً ترتع الغزلان، ولكننا لم نبلغ الحاجب بعد.

أمضيا ليلتهما في سهل الجنّة. وفي الصّباح بدأ طلب الترفاس. في البداية بحثا معاً في السهل الكبير. تناسل العبير في الفضاء وصنع، مع الهواء، الأريج الفريد الذي لا يطمع الصحراوي أن يستنشقه إلاّ عند أعتاب واو. وكلّما تصاعد عطر الجنّة وغزا الموج

www.ibtesama.com

أنفه، كلّما ترنّح الصبي وهزّه الوجد والدّوار. الوجد هو الذي استفزّ فيه الدّمع فلمعت مقلتاه بوميض بلل أخفاه عن أبيه. تنادت الطيور في الأحراش. ارتفع قرص الشّمس قامة فوق خط الأفق. انبثق بينهما الطائر فجأة. انطلق من فرش العشب وركض أمامهما بساقيه النحيلتين الطويلتين. كان آسراً. صغير الحجم. ذهبي الرّيش. موسوم بخطوط فضيّة عند الجناحين. منقار قانٍ، مستقيم. وقف على بعد خطوات وانتظر. ركض الصبي وراءه فجرى أمامه مسافة أخرى قصيرة. توقف وانتظر. صاح الأب:

ـ احترس! إنه «سخرك ايبراضن»!

فأجاب الولد:

ـ هل «سخرك ايبراضن» وديع وجميل إلى هذا الحدّ؟

ـ السرّ في وداعته وجماله. كيف يستطيع أن يخطف الأولاد أمثالك إذا لم يكن جميلاً ووديعاً؟

ـ هل سيقودني إلى المتاهة كما تروي جدّتي؟

ـ سيقودك حتماً إذا استسلمت للإغواء ومشيت وراءه.

ـ هل يحرس باب واو أيضاً مثل الغزال والثعبان؟

ـ نعم. «سخرك ايبراضن» أيضاً من علامات واو.

ـ ألن يقودنا إلى المتاهة؟

ـ لقد اتفقنا إننا لن نمشي وراءه.

رأى الأب تردد الابن فاقترب منه وأمسك به من يده:

www.ibtesama.com

- يجدر بك أن تتوقف عن المشاهدة. المشاهدة تغري بالمطاردة. ولن ترجع عن متابعته ما لم تشح ببصرك عنه. إنه كالسّراب. إنه سراب!

جرّه من يده وانحنيا فوق الأرض بحثاً عن التّرفاس.

قال الأب:

- لو حالفنا الحظ وعثرنا على التّرفاس فسوف تنسيك الطائر.
- هل ستنسيني الغزال أيضاً؟

قال الأب بعد مهلة:

- نعم. أظنّ أن التّرفاسة هي الشيء الوحيد الذي يستطيع أن ينسيك حتى الغزال.
- هل هي لذيذة إلى هذا الحدّ؟
- لا أستطيع أن أصفها بلغة أهل الصحراء. ولكن «لذيذة» كلمة لا تصلح لوصف ثمرة واو.

استمرّ التفتيش. الأب ينحني ويتفحّص الأرض بعناية. يتفقّد الفصيص المخضرّ ويعاين تشققات الأرض باهتمام الباحث المحترف. يقتفي الولد أثره ويتنقّل بجواره. يراقبه بفضول، ويحاول أن يحاكيه في التفتيش والطّلب. قال:

- كيف تبدو التّرفاسة؟

أجاب الأب بلا اكتراث:

www.ibtesama.com

- جوهرة تلدها الأرض وتخرج من الطّين سعياً وراء النّور.
- وكيف تلد الأرض جوهرة؟
- كل الجواهر بنات الأرض.
- ولماذا تسعى إلى النور؟
- لأنّها تحن إلى الأبّ. تريد أن تشاهد أباها الذي يسكن السّماء.
- وهل يسكن أبوها السّماء؟

سكت الأب. ظلّ يخطو ببطء، منحنيّاً على العشب، يلوي يديه وراء ظهره. قال:

- ألم ترتو الأرض بحبّة المطر؟ السماء وهبتها الحياة في قطرة المطر.

سأل الابن بإلحاح:

- ولكن لماذا تريد أن تلتحق بالسّماء؟

ابتسم الأب:

- كل الأشياء التي تولد في الأرض تسعى دائماً لأن تلتحق بالسماء. الإنسان أيضاً تلده الأرض ويسعى للالتحاق بالسماوات. كل الأشياء الأرضيّة تظن أن الأصل في السّماء، في النور.
- جدّتي تقول إن في السماء لا يوجد شيء غير الفراغ والرّيح.

www.ibtesama.com

ـ لا تستمع لما تقوله جدّتك.

رفع رأسه وتوقّف عن البحث. تفقّد الأرض بنظرة شاملة. قال:

ـ يحسن أن نفترق. التّرفاس يحبّ الخلوة.

هتف الابن:

ـ الخلوة؟

ـ التّرفاسة ثمرة سرّية. التّرفاسة مثل الجن، تعتزل وتختلي بنفسها مثل الكنز. لا يعثر على الكنز إلاّ المعتزلة. واصل أنت البحث في السّهل، وسأجرّب أنا البحث في المنحدرات.

اعترض الولد:

ـ ولكنّني لا أعرف لها شكلاً.

ـ ليس من الضروري أن تعرف لها شكلاً كي تجدها. إذا اطمأنّت إليك فسوف تطلع لك من تحت الأرض. ألم أقل لك أنها شبيهة بالجنّ؟

ـ جنّ؟

ـ ستجد تشقّقاً في لحمة الأرض. قُلاع من الطين. تلك إشارة الكنز.

افترقا.

بقي الابن يفتّش في أرض السّهل، وذهب الأب شمالاً لفحص الشعاب الصّاعدة إلى الرّابية الحمراء. استمرّ البحث حتى العشيّة عندما صاح الأب بالنّداء ولوح بيده في الهواء إشارة البشارة. هرع إليه الابن

www.ibtesama.com

فقاده من يده إلى موقع الكنز. انحنى الولد فوق كوم صغير من الطّين في حاشية المنحدر. تشققت الأرض الحمراء وارتفع فوق الأرض نتوء دائري غامض، تخلّلته شقوق وثغرات، كما حمل على ظهره، في تمرّده على سلطة الأرض، حجارة وحبيبات حَصَى. حاولت الأرض أن تستردّ جنينها فلاحقت الثمرة الخفيّة بأكداس التّراب والطين، ولكن الحياة انتصرت في الكائن الخفي فمزّق القماط الأرضي في القمة ورفع رأسه ليرى الضوء. تبدّى الرّأس في الجزء العلوي فكانت الحيّة في الانتظار. سبقت الإنسان مرة أخرى وقضمت، بالنّاب المسموم، الجزء العلوي من الرأس لتمنعه من الوصول إلى النّور، إلى السّماء، وفرّت بالعصارة، بالثّمرة، بالكنز، بالخلود.

تابع الأب الأثر البشع. العلامة، المرقّطة، القبيحة، على الأرض. إشارة العدوّ الخالد الذي خدع الجدّ الأوّل فسرق منه واو وطرده إلى المنفى ليعيش العبوديّة والفناء. الثعبان اللئيم سبقه إلى الكنز وأخذ البكارة. ولكن الثعبان جاء بالسرّ أيضاً. دسّ له في التّرفاسة، في ثمرة الجنّات، تميمة ستفتح له أبواب الوطن الأوّل. أبواب واو.

مسح الأثر بنعله خفية عن الابن وقال بخشوع:

ـ ألا ترى أنها تشبه «إدبني»[1]؟

---

(1) إدبني: قبور الأسلاف المستديرة، ينام عليها الطوارق فتنبئهم بالمستقبل وتخبرهم بأحوال المسافرين. (راجع بهذا الشأن هيرودوت «التاريخ»).

www.ibtesama.com

- إدبني؟

جثا على ركبتيه بجوار الكنز الدّفين. قال بنفس الخشوع:

- إدبني يخفي رفات الأسلاف، ومثوى التّرفاس يحجب السّر. يحجب المفتاح الوحيد الذي يقود إلى واو.

هتف الصّبي:

- هل التّرفاس هي المفتاح الوحيد؟

ولكن الأب دعاه، بيدين مرتجفتين، لممارسة شعائر الكشف. همس بقداسة:

- اقترب!

اقترب الابن خطوة. أمسك الأب بيده. غرقت اليد المتردّدة، الخجولة، في اليد الخشنة، الكبيرة، الراجفة أمام الجلال الذي يحسّه كل من شرع في نبش قبر من قبور الأسلاف. كل من أراد أن يزيح الغطاء عن الكنز المغمور منذ آلاف الأعوام. إنها الرّعشة التي تنتاب المجذوب في لحظة الوجد التي ينتظر فيها أن يرى وجه الله. امتدّت يده، امتدّت يدان متحدتان في يد واحدة، وأزاحت الغطاء. تهاوت قطعة الطّين، ولكنّها لم تتهشّم. ظلّت متماسكة، صامدة، برغم جفاف الأرض وتبخّر النداوة في الطّين. تبدّى الوجه الخفيّ. انكشف الحجاب عن رؤيا حقيقيّة. لم يلمع الرأس في الضوء بالبياض، ولكنه اكتأب باللون المعتم وسلّط نوره الجليل إلى الدّاخل، إلى الخفاء، إلى المجهول المتقوقع في مكان ما في

www.ibtesama.com

الجوف، في العمق، في الباطن، في نفسه، في الحدّ الآخر الذي يتلامس مع السرّ، ويستمد وهجه وغموضه وجلاله من الله.

التّرفاسة كانت من الصّنف المعتم الذي يميل، في لونه، إلى الاحمرار.

قداسة اللحظة انتقلت إلى الابن اليافع فهتف بصوت مخنوق:

- إنها حمراء. ظننت أنّها ستكون بيضاء.

ظلّ الأب يتأمّل القمة النّفيسة. الرأس الخفي السّاعي للالتحام بالله. الجنين المتمرّد على سلطة الأرض، التّواق للتحرّر من كوز الطين والخروج إلى خلاء الحرية. توقّف عن متابعة الكشف. تمتم بخشوع:

- لون الماء من لون الإناء[1].
- لا أفهم.
- حمراء، معتمة بلون الأرض الطينية الحمراء، ولكنها ستكون بيضاء لو عثرنا عليها هناك في رمل السّهل.

أزاح قطعة أخرى بنفس اليد المزدوجة، الراجفة المتوتّرة بالشوق والعشق والحنين لاكتشاف الكائن المجهول. هنا تبدّت العلامة. إشارة الفناء التي تركها ناب الثعبان في جسد المولود الخفي. طابع

---

(1) العبارة للشيخ الجنيد. وقد أولاها محي الدين ابن عربي اهتماماً خاصّاً. وكرّس لها دراسة في «فصوص الحكم».

www.ibtesama.com

السرّ الأزلي. لعنة الخطيئة الأولى، ومفتاح الإنسان إلى التّيه والمنفى وصراط الزّوال.

لمعت عينا الأب بالبلل. غالب شجناً مفاجئاً. تمايل يميناً ويساراً قبل أن يضبط النّفس من جديد ويعود لنبش الكنز.

انتهت مراسم الكشف.

في المساء بدأت شعائر الخلاص.

5 ـ الوطن

أشعل الأب ناراً، وجلس الإبن يداعب التّرفاسة بين يديه. يتأمّلها طويلاً، ثم يرفعها إلى أنفه. يستنشق الشّذى الخفي ويترنّح بعينين دامعتين مردداً:

ـ اللّـ ـ ا ـ ا ـ ا ـ ه. . .

يتابعه الوالد بابتسامة غامضة، يحرّك النّار بالمِسْعر ويغذّيها، بين الحين والآخر، بالحطب. تأمّل العراء الجليل وقال بتباهٍ:

ـ أنت الآن في أرضك، على أبواب واو.

توقّف الولد عن استنشاق الثمرة. اعترض دون أن يتوقف عن تفحص التّرفاسة.

ـ ولكّنني لا أرى جدّي.

اختفت ابتسامة الأب. تمتم بكآبة:

www.ibtesama.com

ـ سوف تراه قريباً.

مدّ يده وتناول الثّمرة من الإبن. قلّبها بين يديه. تفحّص النقوش السريّة التي كتبتها الأرض على بدن الجنين وقال في نفسه: «إنها التمائم التي تضعها الأم في رقبة الوليد كي تعصمه من أخطار الرحلة». أزاح الجمر بالمسعر جانباً وهيّأ لها مكاناً في رماد النار. دسّها في أحشاء الرمل الملتهب وجلس يتنصّت لمرثيتها وهي تتوجع في الرمضاء. حاول الإبن أن يلقي بسؤال فأسكته بنظرة صارمة. أنصت للعويل الفاجع. حاول أن يميّز الأصوات ويقرأ الدّلالة في رموز الضجيج الأليم:

ـ فسـ ـسـ ـسـ ـس...

ثم تحوّلت الفسفسة إلى صفير. الصفير ارتفع في نحيب كئيب. والنّحيب صعد في نُواح حقيقي. استجاب سكون الصّحراء لفجيعة الثّمرة المقدّسة. فناحت الجنيّات. ولطمت الحوريات الخدود. وهدّد الأفق بالظلمات. ووعدت الصّحراء ببكائية طويلة. بدأت الثمرة السّماوية تنزف.

رشح السّائل القاني من القلب. وسمع الأب النّعي الفاجع. نزلت من مقلته دمعة كبيرة، ولكن الابن، الأسير، المشدود إلى التّرفاس والوطن، لم يلحظ ضعف الوالد.

تنصّت الأب فسمع لغة المناحة. سرّ الميلاد وفجيعة الحياة. فرح الجنين بالوجود، ومعاناة المسيرة التي ينفقها في الألم والتّيه

www.ibtesama.com

والمنفى. المسافة الفاصلة بين الميلاد ومملكة النسيان هي الكابوس. اغنية الفرح لا تبدأ إلاّ بعد الخروج. السّكينة لا تتنزّل إلا بعد اجتياز المسافة الأرضية، وعبور الكابوس إلى أرض النسيان مرة أخرى. في لحظة العبور يفقد الشّقاء البشري معناه فتفتح واو أبوابها. فلا تبك وأنت تتأهّب لدخول واو، ولا تندم على رحلة العبور، لأن البقاء في ذاكرة الغيب أهون من النزول إلى صحراء الذاكرة، ويوم تقفل واو وراءك أبوابها وتستقبلك عارياً أفضل من اليوم الذي خرجت فيه منها منفوشاً مكابراً ملعوناً بالمنفى والضياع.

أكملت الثّمرة السرّية موّالها. أخرجها من رمضاء النّار موسومة بالنزيف وسياط الجحيم. اختفت تمائم الأم واكتوت بقشرة العذاب. ولكن ندبة الرأس لم تتضرر. النّدبة الجليلة التي مسّها النّاب المسموم. في الندبة يكمن السر. النّدبة هي المفتاح.

وضعها على لوح حجري صغير. تركها حتى بردت. توقّف النّزيف. شقّها بالسّكين إلى نصفين. تعمّد أن يترك الجزء العلوي المحفور بالنّاب. قسّم النصف السّفلي إلى قطعتين. ارتفعت الرائحة. تناقل هواء الصحراء الشّذى السّري. الأريج السماوي الذي تتخذه الثّمرة فخّاً للإيقاع بالمعاندين الذين يرفضون أن يذهبوا إلى واو إلاّ مكبّلين بالسّلاسل.

تناول الابن قطعته. راقبه وهو يقضمها. ثم وهو يلوكها. ثم وهو يغمض عينيه ويتمايل مجذوباً. من عينيه سالت خيوط الدّموع.

www.ibtesama.com

فتحهما وأغمضهما دون أن يتوقّف عن المضغ والجذب والبكاء.

قال الأب وهو يتناول نصيبه:

ـ كنت أعرف أنّك ستبكي.

تمتم الولد دون أن يمسح دموعه:

ـ هذا لا يصدّق!

ـ أنا أيضاً بكيت عندما أكلت التّرفاس أوّل مرّة.

ـ هذا لا يصدّق!

ـ اجذب. وابكِ. فعندما يقف الإنسان على باب واو يستطيع أن يبكي، لأن الخجل لن يعود له معنى.

استمرّ الابن يجذب ويبكي. استمرّ يبكي حتى بعد أن توقف عن المضغ وبلع اللقمة السّحريّة.

سأل الأب:

ـ هل ذقت أشهى من هذا؟

هزّ الولد رأسه بالنّفي. تمتم مترنّحاً:

ـ أبداً.

هنا اقترب الأب من القطعة التي تحمل الندبة. النصف المهيب المطبوع بناب الخلود. تهيّأ للوداع. شطره نصفين. تنهّد بعمق. ظلّ يتأمل قطرات النّزيف التي تركتها الثمرة الجريحة. ذبح الحجر وجرّ عليه السكين ثلاث مرات. توقف وقدّم القطعة للابن.

www.ibtesama.com

هنا ارتعشت اليد حتى كادت القطعة أن تسقط. تلك لم تكن رعشة ولكنها انتفاضة..

تابعه وهو يقضم نصيبه. في البداية أغمض الصّبي عينيه وعاد يترنّح من الوجد والانتشاء، ثم بدأ يتراخى ويغيب دون أن يكف عن الجذب.

بدأت شعائر الوداع.

سقط إلى الوراء. لامس ظهره الأرض. من شفتيه تفصّد زبد ناصع.

تمتم بصوت واهن، خفي:

ـ أبي، لا تتركني.

اقترب الأب زحفاً على ركبتيه. أمسك بمعصم الابن. انحنى فوق البدن المسجّى. قال:

ـ لا تخف. سوف نذهب معاً. سنترافق إلى الأبد.

ولكن الغلام فتح عينيه فجأة فلم ير الأب فيهما سوى البياض. تحامل على نفسه كي يتكلّم:

ـ جدّتي قالت إنّك ستفعل هذا.

قفز الأب إلى الحجر. خطف قطعته المطبوعة بندبة الوداع. ألقى بها في فمه بلعها دون مضغ. بعد قليل أحسّ بالخدر والسّكينة والصّفاء. تمتم:

ـ لا تستمع لما تقوله جدّتك.

www.ibtesama.com

تساءل الابن بصوت الوداع:

ـ لماذا فعلت ذلك؟

همهم الأب:

ـ وكيف تريد أن تذهب إلى الوطن؟

علا هدير الدفوف. رأى نصل السّكين يرتفع في الهواء ويلمع تحت شعاع القمر. سمع صرخة الشيخ: «لا أرى سعادة للإنسان أكثر من أن يُفْنَى عن نفسه[1]، ولن يفوز بالنّعيم، إلاّ من وجد الشجاعة ليخرج للنّاس قلبه». استجاب المريد بآهة طويلة، فاجعة، قبل أن يهوي على الصدر بالنّصل. تمدّد النصل. بلغ النّبع. نبع النجاة انقطعت آهة الوجد الفاجعة وتحوّلت من: «اللّـ ا ـ ا ـ ا ـ ا ـ ه..» إلى: «آ ـ آ ـ آ ـ آ ـ آ ـ ه» انقطعت كي تتواصل، ربّما، في الفناء، في الخلود. ترنّح الكوكب الصحراوي لأول مرة. انكفأ الأب على جسد الابن. استمرّ يمسك بيدي الوليد. سقط الرأس على الرأس. غاب جسد الابن في جسد الأب. توحّد الجسمان في بدن واحد لصيق بالأرض. أفلت الطائر من القفص وطارت شعلة النّور. بقي كوز الطّين هامداً، متحداً، مستسلماً للتُّراب.

في العراء الحزين، الخالد، اكتمل نزول العتمة.

موسكو

1991 /6 /5

---

(1) النصف الأوّل للجملة لفريد الدين العطّار النيسابوري «منطق الطير».

www.ibtesama.com

الفسخ

«إلى ل . آمغار»

www.ibtesama.com

منتدى مجلة الإبتسامة
www.ibtesama.com
مايا شوقي

www.ibtesama.com

- 1 -

- اخنوخن. أنت قتلت أمّي!

سمع الاتّهام بوضوح. وسمع صداه يتردّد في القمم الخفيّة، البعيدة، العارية. توقّف وأصاخ السّمع. ثم بحث في الجبال المجاورة فلم يقع بصره على مخلوق. مشى بضع خطوات أخرى. تكرّر النّداء:

- اخنوخن. أنت قتلت أمّي!

ألقى الصوت المجهول بالاتّهام فوق رأسه. رفع رأسه إلى أعلى فوجد فم الكهف في مواجهته. ظلمة كئيبة، موحشة، تصلح لإقامة أهل الخفاء. وقف في المواجهة لحظات، ثم استدار ومضى. خيّل له أنه سمع أقداماً تدحرج حجارة خلف ظهره، ولكنه مضى دون أن يلتفت. انتظر أن يتكرّر الإتهام، ولكن السكون الجليل عاد إلى تاسيلي. فكّر في الإتهام. أين ومتى قتل. لا يذكر أنه قتل أحداً حتى في المنام فمن أين جاء المجهول بهذا الإتهام القبيح؟

www.ibtesama.com

ليس الهتاف ولا النداء مدهشاً بالنسبة لرجل مثله عاش حياته كلها في وطن الجن والأشباح تاسيلي، ولكن اللغز هو في الإتهام البشع. فهل تعلّم أهل الخفاء المزاح أيضاً؟

بلغ السفح. بدأ يصعد. انتصف النهار. مسح العرق عن جبينه بذراعه. ألقى بحزمة الحطب في مدخل الكهف. انصت مرة أخرى. ارتفع لحن السكون الخالد. انتزعت الصحراء المبادرة واستعادت سكينتها الأبدية. شمس منتصف النهار تجبر حتّى الجن على الإنسحاب.

- 2 -

تفقّد الخدوش في ذراعيه. تناول حفنة من الرّمل وذرّها فوق الجراح. نهش الملح اللحم فتأوّه. ابتسم وهو يتابع شقاوة الملوحة وهي تتتبّع آثار الحطب، تأكل اللّحم، وتلعق الدّم.

تسكّع في المدخل. استطلع الحضيض فرأى كيف يتمادى السّراب ويمدّ أعرافاً من اللّهب على الرّوابي البعيدة، صانعاً، مع السّكون، الجلال الخفي.

نزّ العرق. عاد يمسح الجبين بكم الجلباب. تفقّد الخدوش. كانت ذراعاه موسومتين بخطوط صنعها الرّمل تشبه القُلاع الذي تخطّه عروق الأشجار البريّة فوق وجه الرّمل. عند طوق التّراب الذي تقيمه الرّيح حول الجذوع. ملوحة الرّمل امتصّت النزيف وأوقفت تدفّق الدّم. جراح المعصمين قدر الحطّاب. لا يذهب

www.ibtesama.com

لاستجلاب الحطب دون أن يعود بجروح في المعصمين. وكانت أمّه ترش الرّمل على يديه وتقول بتسليم: «ماذا تظن؟ الحطب يريد نصيبه أيضاً. الحطب لا بد أن يأكل نصيبه أيضاً. لا بد أن يأكل قبل أن يؤكل، لا بد أن ينتقم قبل أن يؤكل، لا بد أن ينتقم قبل أن تحرقه بالنّار». تقول ذلك بلهجة جادّة وكئيبة إلى حدّ يجعله يشعر بالشفقة والنّدم. يشفق على الحطب المسكين الذي سيحرق بالنّار، ويندم لأنه تسبّب في وقوع الجريمة. في البداية كان يضحك من لغتها ويسخر من قدرة الحطب على المناورة والمقاومة والانتقام فيسأل الأم: «وهل تستطيع حطبة يابسة أن ترغب في النّصيب يا أمي؟ هل يقدر عود ميّت أن يعارك ويدافع عن نفسه؟» فتجيب بنفس اللهجة الجادّة، الكئيبة، الغامضة: «وماذا تظن؟ كل شيء في الصحراء يتألم ويفرح. حتى الأرض الخرساء. حتى الحجارة. حتى ذرّات الرّمل. ألا تستمع إلى ذرّات الرمل في السهل عندما تقرع الطبول وتردد الألحان في الليالي؟ إنها تفعل ذلك احتفالاً بالنسيم الشمالي، وفرحاً بالخلاص من حرّ النهار. انظر كم تبدو يائسة وشقيّة في منتصف النهار. إنها تفتح صدرها وتتعذّب في صمت. إنها تستسلم للقدر ولا تشكو أبداً. ولكن التسليم بالقدر في النهار لا يمنعها من أن تفرح وتغني وترقص بالليل». وكانت تبدأ بشعائرها. تزم شفتيها، وتحدّق في الخلاء الموحش، الفسيح، الممدود في مواجهة الجبال، كأنها تنظر في الفراغ. ثم تبدأ في التمايل، مع شكوة الحليب، يميناً ويساراً. تستمر هذه الصلاة زمناً طويلاً، تمتد حتى القيلولة أحياناً.

www.ibtesama.com

عندما كان صغيراً ظنّ أن مخض الحليب وتكوّن الزّبد هو الذي يستدعي هذا الزّمن الطويل الذي تنفقه العجوز في الشعائر اليومية، ولكنه فهم، فيما بعد، أن تحصيل الزّبد لا يستغرق ربع هذا الوقت. ومضى زمن أطول حتى فهم السرّ. فهم أن صلاة العجائز الحقيقية تبدأ بعد نهاية الصلاة. العبادة الحقيقية هي التي تصاحب الإيقاع الرّتيب الذي يحدثه اندفاع الحليب في الشكوة إلى الجانب الأيمن، ثم إلى الجانب الأيسر، حسب حركة الأم إلى الجهتين. وقد لاحظ أنّها لا تحرّك يديها فقط، ولكنها تتحرّك بكل جسمها. تميل بالجزء العلوي حتى تكاد تلامس الأرض، ثم تميل إلى الناحية المعاكسة حتى تكاد تتوسّد الشكوة. كأنها ترقص. كأنها تمارس الجذب الذي يتقنه الرّجال عندما يقعون في الوجد. الرّجال الذين تستفزهم الألحان وتوقظ فيهم قوى الجنّ. والشّبه بينها وبين المجذوبين لا يقتصر على الحركة والترنّح يميناً وشمالاً فحسب، ولكن في حالة الغيبوبة أيضاً. فهي، إذا بدأت العمل، لا ترى، ولا تسمع، ولا تفهم، ولا تنطق، ولا ترد على سؤال. تظل واجمة، كئيبة، جليلة، كأنّها تصلّي. عندما تكبّر للصلاة أيضاً لا ترى ولا تسمع ولا تفهم ولا ترد على سؤال.

في ذلك اليوم عندما حدّثته عن عذاب الأشياء في الصّحراء راقب موقد النار. انصت للأنين في أعواد الحطب. تأملها وهي تحترق في ألسنة النار ورأى كيف ينزّ منها سائل معتم كالدّم. قال في نفسه: «إنها تنزف! إنها تنزف!». كان الأنين موجعاً والنزيف يتواصل بلا

www.ibtesama.com

توقف. مدّ يده وأخرج عوداً نازفاً من الموقد. تحسّس السّائل فوجده لزجاً، قانياً، حارّاً. نزيف حقيقي. دم حقيقي. أحسّ بالغثيان. امتنع عن الطعام في ذلك اليوم. وفي الليل حاول أن يتصيّد الفرح في ذرات الرمل الحزينة. أنصت طويلاً. نامت الأم. ارتفع شخيرها في الناحية الأخرى من العراء، ولكنه واصل السّهر. ارتفع القمر. تسلّى بمراقبة القرص السري الغامض. و.. فجأة سمع نشيداً. مّوالاً. أغنية حقيقية. فاجعة. تقترب وتبتعد، يصاحبها ضجيج خفي. بعد قليل تبدّى الضجيج واتضح في قرع منتظم، حزين، للطبول. كان فرحاً حزيناً.

تابع القرص السري، وانصت للفرح الحزين. فلم يشعر كيف فزّت من مقلتيه المفتوحتين دموع حارّة، كبيرة.

- 3 -

يروي الرعاة الحكماء أن الصحراوي لا بد أن يموت بالأسباب الثلاثة: الظمأ، السيل، الأمراض الخفيّة. ويؤكدون أن من لم يمت بالأسباب الثلاثة نال عمراً طويلاً. وتقول عجائز تاسيلي أن هذه حكمة لا تخص الرعاة، ولكنها وجدت مزبورة في جدران الكهوف حيث حفرها الأسلاف الأوائل نقلاً عن «آنهي» المفقود.

الأب مات بالسبب الأوّل قبل أن يعي معنى الموت والحياة. والأم ماتت بالسبب الثالث. وهي ميتة أجمع أهل تاسيلي أنها أجمل ميتة يمكن لصحراوي أن يطمع بها. نهض في الصباح فوجدها ما

www.ibtesama.com

تزال نائمة، مكومة في مدخل الكهف كقطعة قماش بالية. تسند رأسها الصغير بمعصمها وتيمم شطر القبيلة. ناحية الشرق. كانت الشمس تناضل للخروج من الأسر وتتحفّز لتعذيب الصحراء بأشعة النار. أدهشه أن يرى قرن الشمس ولا يجدها تترنّح فوق الشكوة في طقوس وجدها اليومي. أرجع السبب للسهر ورجع عن نيّته في إزعاجها. قرر أن يتركها تتمتع بالأحلام حتى يعود من تفقّد الإبل. ماذا يحدث في تاسيلي لو أشرقت الشمس وعجوز بائسة، متعبة، ما تزال نائمة؟ تعمّد ألاّ يوقظها. ابتسم وهو يتناول وعاء الحليب وينزل إلى النوق في الوادي. تذكّر ما تردده دائماً من أن طلوع الشمس على امرأة نائمة أمر يفوق حلول الوباء شؤماً، الأرض التي تشرق فيها الشمس والنساء نائمات لن ترى الخير أبداً. لن تسقط فيها قطرة مطر، ولن تشقّها السيول. فكيف ستبرر غفوتها؟ ماذا ستقول لأشعة الشمس عندما تطلع على رأسها وتضبطها متلبّسة بالنوم؟ أي شؤم ستراه تاسيلي وهي التي لم تر سوى الشؤم منذ عشرة آلاف عام؟ أي شؤم يمكن أن يجرّ شروق الشمس فوق رأس أنثى نائمة على تاسيلي التي عانت من العطش والمجاعة والأوبئة وقساوة الشموس؟ أي مصاب آخر يمكن أن يفاجيء به القدر تاسيلي التي ذاقت على يديه كل المفاجآت؟

عاد بالحليب من الوادي فوجدها ما تزال تتوسد معصمها الهزيل. نفّذت الشمس وعيدها وسلّطت على وجهها أشعة نحاسية واعدة بالحريق. انعكست دفقة من الضوء في عينها اليمنى التي اكتشف

www.ibtesama.com

فجأة أنها بقيت نصف مفتوحة. لا يعرف لماذا أحس بالقلق. ربما لأن السبب يرجع إلى هذا التعبير المبهم الذي أثاره فيه انعكاس ضوء الشروق في بياض المقلة. تعبير رآه في مقلة الشاة الذبيحة. تعبير الفجيعة. اقترب خطوات. تحسس يدها فوجدها باردة، كسولة، مثل قطعة حطب. أراد أن ينطق باسمها. أن.. لم يستطع. تصاعد القلق. ركع بجوارها وهزّها بكلتا يديه. اختل توازن الجسد الهزيل ومال إلى الوراء. هجعت على الظهر، وارتفع رأسها إلى السماء. تفتّح الجفنان عن كل المقلة اليمنى. رأى التعبير الخفي واضحاً الآن. استسلام، ووداعة، وتساؤل أكثر طفولة.

فهم ما حدث.

أدرك أن لدى القدر دائماً شؤماً آخر يخبئه حتى تحين اللحظة المناسبة. أدرك أن لدى القدر مفاجآت يستطيع أن ينال به حتى تاسيلي التي عرفت كل المفاجآت. مفاجآت يناله بها حتى هو الأعزل، المعزول، المقطوع من صخرة في كهوف تاسيلي.

- 4 -

أشعل النّار في الحطب وتربّع في ظل فوهة الكهف. أعدّ وعاء الشاي وانتظر أن يخمد اللهب. رفع رأسه إلى السقف وتلهى بمشاهدة الجموع التي أتقن الأسلاف حفرها في الصّخر. رسوم ملوّنة لرجال مردة يرتدون أقنعة، يطاردون حيوانات اختفت من الصحراء. و.. أشباح، تفنّن الأجداد وأبدعوا في حفر خيالات

www.ibtesama.com

الجنّ على الحجر. أوّل تعرّفه على هذه المخلوقات كان على صخور الكهوف. في الصّغر، عندما طارد الجديان الشقيّة في الكهوف وبين شقوق الجبال اكتشف مغارات كثيرة موسومة بهذه الأشباح والعمالقة والغيلان. ولكن الأم ما لبثت أن كشفت له السرّ. قالت يوماً بعد أن انتهت من وجد الصباح: «لا تستعذ منهم ولا تلعنهم فهم ليسوا سوى أهلك أيضاً». احتجّ «أهلي؟ الجن أهلي؟». رمقته باستنكار. قالت بغموض العجائز: «ولِمَ تستنكر؟ كل سكّان الصحراء أهلك. بل هم السّكان الأصليون الذين سبقونا إلى الصحراء. ألا يسميهم الحكماء «كيل أسوف»؟» سكت يومها وفكّر طوال الأيام التالية في صلة القرابة بأهل الخفاء. كان يتنقل بين المغارات ويزيح الأتربة والأملاح والطين عن وجوههم المحفورة في الحجارة ويستعيد ما قالته العجوز. عاد في إحدى الليالي وسألها: «ولكن لماذا يخيفوننا إذا كانوا أجداداً؟» وكان الجواب على شفتيها جاهزاً دائماً: «الجن لا يخيفون أحداً. لا يخاف الجنّ إلا مخلوق شرّير. لا أنكر أنهم مرحون وميّالون للمداعبات في بعض الأحيان، ولكنهم لا يؤذون إلا الأشرار». يذكر ليلتها جيداً كيف سألها: «ومن هم الأشرار يا أمي؟» هنا سكتت فساد سكون الصحراء السري. ظنّ أنها لن تتكلم فتهيأ لأن يعيد السؤال. في النهاية أجابت: «الأشرار هم الذين يقتلون الودّان ويبيعونه لتجّار القوافل. الأشرار هم الذين يصطادون أنثى الودّان وهي حبلى. الأشرار هم الذين يقطعون أعراف الشجر وهو أخضر. الأشرار هم الذين يشوّهون وجوه الأسلاف

www.ibtesama.com

المنقوشة على الصخور. ويخرّبون خطوط الأوّلين ويزيلون وصاياهم. أو يسلخونها من أصلها ويبيعونها للأغراب. الأشرار. الأشرار، يا ولدي، كثيرون هذه الأيام». سكتت فعاد السكون السري إلى الهيمنة. ارتفع القمر وفكّر. فكّر وفكّر، ثم سأل: «وإذا كان الصياد جوعاناً: ألا يبيح له ذلك أن يصطاد أنثى الودّان حتى لو كانت حبلى؟». قالت بوضوح انطبع في ذاكرته إلى اليوم، إلى الأبد: «لا يا بني. لا. لا شيء يبيح صيد أنثى الودان. لا شيء. حتى الجوع». عاد يعاند: «ولكن ألا يستطيع المهاجر أن يقتطع عوداً أخضر إذا كان البرد قاسياً؟». أجابت: «لا يستطيع. البرد لا يبرر قطع الشجر الأخضر مهما كان قاسياً. لا يجب على المهاجر أن يتدفأ بالشجر الأخضر كما لا يجوز له أن يأكل اللحم الحي. هل يجوز للإنسان أن يأكل لحم أخيه الإنسان؟». حاججها: «وهل يجوز مقارنة لحم الإنسان بأعواد الشجر؟ هل الشجرة إنسان؟». أجابت بيقين: «شجر. حيوان. إنسان. نحن من صنع هذه الألقاب الغبيّة. وما تسمّيه شجراً مخلوق مسالم لا ينطق ولا يتكلّم ولا يبادر بسوء، ولكن هذا لا يعني أنه ليس أذكى مني ومنك ومن أي إنسان». و... سكتت. انتظر أن تكمل. ولكن السكوت استمر. التفت. رأى، على ضوء القمر، دمعة كبيرة تتلألأ في أهداب عينها اليمنى.

- 5 -

أنصت لتوجّع الحطب في النّار. أنين أليم مكتوم. لحن الحزن والشكوى. أغنية الانفصال عن جسد الأم الأخضر. الأم تقول أن

www.ibtesama.com

هذا التوجّع هو لغات تنطق بها الأغصان الخضراء وتشكو بها الإنسان إلى الخالق. التوجع يعقبه النزيف. رأى غصن الطلح ينزف دماً قانياً. دماً موجعاً أيضاً. فكّر أن الحطّاب لا بد أن يقترف الإثم وينتزع عوداً أخضر. أعواد كثيرة تبدو من الخارج يابسة، ميتة، في حين تخفي تحت طبقة اللّحاء حياة حقيقية، وعندما تلقي بها في النّار تبكي وتشكو وتتوجع. إنها مثل الضبّ الذبيح. يبدو ميتاً بعد أن نزف وفقد الدّم، ولكنه يقفز من الموقد بمجرد أن تلقيه في النّار، ويجري في العراء. فكيف يستطيع الحطاب أن يميّز العود الأخضر من العود اليابس؟ كيف يستطيع الصّياد أن يعرف أن شاة الودّان التي تتقافز بين الصخور كالشّبح إنها أنثى تحمل جنيناً؟

الأم قالت إن الحكماء الذين يحبّون الصحراء يعرفون. الحكماء الذين يعشقون تاسيلي ويحرصون أن يفكّوا الرموز على الحجارة، ويبكون على «آنهي» الضائع، ويلثمون أجسام الأسلاف في جدران الكهوف يعرفون. لأنهم لا يعقلون الطلح أو الودّان، أو وصايا الأولين بعقولهم، وإنما يحسونها ويتحسّسونها بأبدانهم. سألها في ذلك اليوم: «وكيف يمكن لابن تاسيلي أن يكون حكيماً مثلهم؟» فكان جوابها جاهزاً: «لن يكون ابن تاسيلي حكيماً ما لم يحب تاسيلي. لن تحسّ بالحياة الخبيئة في العود اليابس إلاّ إذا أحببت الطّلح. لن تحسّ أن الشبح هو أنثى الودّان إلا إذا أحببت الودّان. ولن تحفظ حكمة الأسلاف وتعرف سرّ وصايا الأوّلين إلا إذا أحببت نقشهم في الحجر وأثرهم في الصخور. ولن تحبّ تاسيلي إن لم

www.ibtesama.com

تبك حبّاً على تاسيلي. لأن تاسيلي كانت في يوم من الأيام جزء مدهش من السماء. تعايش فيها الجن والإنس والودّان والضّب والطلح والأثل في فردوس تجري في وديانه سيول خالدة. ولكن الإنسان هو الذي بدأ. الإنسان هو الذي خان العهد ورفع يده على أخيه الإنسان. ثم كاد للجنّ، واصطاد الودّان، وذبح الضّب، وقطّع أوصال الطلح والأثل فقعقعت السماء بالغضب وتزلزلت الأرض، وانفصلت تاسيلي عن السماوات. جفّت الينابيع الخالدة. ووجد الإنسان نفسه وحيداً في العراء، فابك. إبك على تاسيلي وتوسّل أن تعود جزءاً من السماء. واعلم أنها لن تعود إلى السماء ما لم تتوقف أنت عن صيد أنثى الودّان الحبلى، وتتراجع عن قطع الحطب الأخضر. و.. إبك أيضاً. لا تتوقف عن البكاء. الإنسان الذي يحب لا يجب أن يكف عن البكاء».

كانت تبكي. ووجد نفسه يبكي أيضاً. وعرف لماذا تبكي دائماً وتفز عيونها بالدمع، كلما جاء ذكر الحيوانات الصغيرة، أو الأشياء الخفيّة، أو الأسلاف، أو الماضي البعيد للصّحراء. و... أيضاً، عندما تسمع همهمات الجن في الكهوف، أو تكتشف عوداً أخضر ينزف في النّار، لحظتها تقهرها العبرة، وتشارك الأشياء في البكاء.

- 6 -

في الليل زاره الجنّي لأوّل مرة.

نزل إلى الوادي ليقضي الليل بجوار الجمال. نام في العراء

www.ibtesama.com

المشرف على الوديان الشمالية واستيقظ على حركة الاستنفار في الإبل. كانت قلقة، متوترة، ترفع رقابها في العتمة وتتلفّت في عصبيّة. ولم يقرأ الإشارة في الوقت المناسب لأنه نسي وصيّة الأم القائلة إن للجمال قدرة خفيّة على الإحساس بوجود أهل الخفاء. فإذا ساورها القلق ودبّ فيها الاستنفار فاعرف أن كائناً خفياً قد أقبل.

أحسّ بقشعريرة. وكانت القشعريرة هي الإشارة الثانية التي تجاهلها أيضاً قبل أن يتلقى ركلة قاسية على عجيزته اليمنى. هبّ واقفاً فتلقّى صفعة أقسى على خده الأيسر. تحسس الخد فهوى الجنّي على منكبه الأيمن بهراوة ثقيلة. وقع على الأرض، وركع على ركبتيه، محاولاً أن يتقي الضربات بيديه وذراعيه. تواصلت الضربات. تأوّه. توجّع. تلوّى على الأرض. صاح بصوت وحشي رددته الجبال: «كفى! كفى! هذا يكفي!».

توقّف العدوان.

سمع خطواته وهو ينصرف. انكفأ على وجهه وطفق يلهث. بدنه كله يتوجّع، يحترق بحرارة كالحمّى. زحف إلى المتاع وتجرع الماء من الزمزمية. استلقى على قفاه ونذّت عنه آهة فاجعة. قال في نفسه: «ما أقسى يده! ما أشرس يده!». وفهم لماذا يخاف الرعاة من الجن. ومن سيرة الجن. ومن انتقام الجن. حبس أنفاسه وأنصت. عاد السكون الخالد يبتلع كل شيء في الصحراء. الجمال هدأت واطمأنّت. بركت بعض الرؤوس وشرعت تجترّ بسكينة واطمئنان.

www.ibtesama.com

أيقن أن الشبح ابتعد، واستغرب التزامه بالصمت طوال انهماكه في تنفيذ العقاب.

لم يتكلم. لم يتّهم. لم ينطق بالوعيد. لم يعد عليه تهمة النّهار: «اخنوخن. أنت قتلت أمّي!». أم أن الجني الذي اعتدى عليه هو مخلوق آخر؟ جني من قبيلة أخرى؟ ولكن لماذا لم يهاجمه جن قبل اليوم؟ لماذا لم يتعرضوا له بسوء طوال السنوات الماضية؟ وهل يعتدي جن على إنس بلا سبب؟ الأم تؤكد أن ذلك مستحيل. تقول إنهم مسالمون ولا يحتكمون إلى العدوان إلا ردّاً على عدوان، ولا يؤذون إلاّ مخلوقاً شريراً، فمتى ارتكب الشرّ؟ أين ومتى قتل أمّه؟ أين ومتى قتل أمّاً؟

و.. فجأة، وكما يفعل الإلهام، انكشف الغموض. انكشف بوحي سماوي وانبثق في الذاكرة كالضوء: صنع فخاً ونصبه للودّان منذ ثلاثة أيام في وادي «أميهرو»! تضاعفت نار الحمّى. تحوّلت أوجاع البدن إلى قلق خفي تكتّل في قفص الصدر وخنقه بالعبرة. بدأ يرتجف.

- 7 -

في الفجر وضع السرج فوق ظهر الجمل وسافر إلى وادي «أميهرو».

وصل مع القيلولة. هدّدت الشمس بعذاب النّار. وأطلقت السراب يسرح في الخلاء. ترجّل عن المهري. ترك الجمل يرتع في

www.ibtesama.com

أشجار الوادي. تتبّع آثاره عندما جاء منذ أيام وقرر أن يتسلّى بصنع الفخ. ولا يعرف الآن سبباً لهذا العمل غير التسلية. فالوديان فازت في أواخر الشتاء بالسيول. النّوق توالدت مضيفة إلى قطيعه اثني عشر حواراً. وحمل له الرعاة بشارة أخرى من المراعي وقالوا له أن ماشيته تكاثرت وتكاد تتضاعف بالجديان. تاسيلي تفيض بالحليب والسّمن والزّبد والأجبان هذا العام. مؤونة السنة الماضية من الحبوب والتمور لم تنفد من المطامير. فماذا دفعه لصنع الفخ غير الملل والتسلية؟.

وما يثير دهشته الآن ليس صنع الفخ وحده، ولكن الثمن الذي دفعه في صنع الفخ. أطاح بشجرة كاملة حتى يتمكّن من تركيب لعبته المشؤومة. فقد العقل، وأضاع الذاكرة، وخالف أوّل وصية نطقت بها العجوز. وجد الوادي يجري بالسيل، والنّوق تتوالد، والبشائر تتوالى فتكاسل وركن إلى الاسترخاء. سَهَا فزلّ وحاكى الأشرار. وإلا من ينسى وصايا الأم، ويخالف تعاليم الأسلاف لمجرّد أن الخير فاض في تاسيلي وعمّ؟ من يغفل عن تقلّبات الصحراء، ويستسلم للاسترخاء دون أن يقرأ حساب يوم يشيح فيه النعيم بوجهه فتعم المجاعة والأوبئة والجفاف؟ من تغريه وفرة الخير ويصنع فخاً للصّيد بدل أن ينحر شاة قرباناً للأسلاف وشكراً للآلهة هو الشرير!

- 8 -

وقف فوق الحفرة فدقّ قلبه بشدّة.

www.ibtesama.com

كانت الحفرة خاوية.

أطبق فم الشرك على الشّاة. ولكنها استطاعت أن تخرج من الهاوية وتجرجر المصيدة إلى الجبل. اقتفى الأثر. على بعد خطوات خلّف الحيوان بعراً. تناول بعره وهرسها بين أصابعه. بدأت تجف وتتيبّس. البعرة تعود إلى يومين أو ثلاثة أيام. الأرجح أنها ثلاثة أيام. الحيوان وقع. نزل من الجبل ووقع في الشرك في نفس اليوم الذي نصب فيه «لعبته». في مساء نفس اليوم. قطعان الودّان لا تنزل لترعى في السهول إلاّ في الليل. تنزل في قطعان عادةً، وتعود لتعتصم بالقمم قبل انبثاق قبس الفجر. ولكن هذه الشّاة لم تكن عضواً في قطيع. ربما انفصلت عن القطيع في الوادي المجاور وقررت أن تجرّب حظّها وحيدة. الودّان المسكين لا يعرف العزلة. لا يعرف أن المجازفة تبدأ لحظة اختيار العزلة. الخطر في العزلة. والحرية في العزلة أيضاً. الخطر والحرية إذن رفيقان. قرينان. توأمان. وهذه هي الحيلة الوحيدة، الحكمة الوحيدة التي لم يسمعها من الأم، ولم يتعلمها من الأسلاف، ولم يقرأها في رموز الكهوف. هذا هو المبدأ الوحيد الذي تعلّمه بنفسه في الصحراء. المعتزل قوي حقّاً لأنه لا يستطيع أن يعتمد على أحد يهرع لإنقاذه عندما يقع في ورطة. عندما يقع في الخطر. عندما يهاجمه ضبع. أو يلتف حول رقبته ثعبان. أو يغويه السّراب ويرميه بعيداً عن صراط القوافل، فيجد نفسه أسير غول اسمه: الظّمأ.

ولكن هل يستطيع القطيع أن يفعل شيئاً؟ هل يفيد التواجد بين

www.ibtesama.com

الجماعة حسب شريعة الصحراء؟ لا. لا يفيد ولا ينفع. بل يؤذي أكثر مما يفيد. لأن الأذى إنما يأتي، أغلب الأحيان، من الجماعة. العضو في قبيلة، أو في قطيع، يسترخي معتمداً على الجماعة، وما أن تحل لحظة الامتحان ويحتاج لمساعدة أعضاء القطيع يكتشف أنهم أضعف من أن يساعدوا حتى أنفسهم. يكتشف أنهم إنما كانوا، طوال الوقت، ينتظرون يد المساعدة منه هو لا أن يقوموا هم بتقديمها له. يكتشف أنه غريق يتعلّق بقشّة. يكتشف أنه مخدوع. والمصاب أن من لم يجرّب الانتماء إلى الجماعة، القطيع، لن يستطيع أن يختصر الطريق ويتولّى أمر نفسه بنفسه.

وشاة الودّان التي اختارت أن تنفصل عن القطيع وتبحث عن الكلأ في وادي «أميهرو» بدل الوادي المجاور، هي عضو شجاع قرّر أن يصنع مصيره ويتولى أمر نفسه بنفسه. وما وقوعها في الفخ إلا شهادة على هذه الشجاعة، وبرهان على مسؤولية الاختيار.

- 9 -

مضى وراء الأثر. الشّاة تعارك الشّرك، وتستميت في الوصول إلى الجبل قبل ميلاد القبس. أثر الصراع يتضح كلما عبرت الشاة ألسنة الرمال التي تشطر الوادي المفروش بطبقة رقيقة من الحصى، تتبعثر فوقها الحجارة الرمادية المحروقة بالشمس. ويبدو أنها تجد صعوبة شديدة في جرّ الفخ. ضاق عنق الوادي، وبدأ يتشعّب كلما صعد إلى أعلى واقترب من الجبل. اشتدّت كثافة الحجارة الرمادية الكئيبة

www.ibtesama.com

وساعدت في ضياع الأثر. مشى مسافة عبر الوادي الذي انحرف يميناً، ولكنه عاد على عقبيه. تذكّر أن مسيرة الودّان تتجه نحو حصنه الأبدي. نحو الجبل. قطع الوادي. صعد المرتفع. المرتفع قاده إلى السفح الموحش، المتوحش، القاسي، المفروش بالحجارة العدوانية. ولكن القبلي انتصر، بعد مسافة، وقصم ظهر الجبل بلسان رملي عنيد. هناك، على الفراش الذهبي اللّميس، عثر على الأثر مرة أخرى. على الرمل عثر على قطرات دم يابس. واصلت المسيرة إلى أعلى. نحو قمم الصلصال والمستحيل. بدأ يستعين بيديه في الصعود. تحاشى الوعورة وصخور الصلصال فانعطف يميناً. نحو حيد الجبل. استمر يتسلّق الكتل الحجرية الجليلة مستعيناً بيديه، يتسلّى بقراءة رموز «تيفيناغ» المحفورة على الأحجار حتى انتزعه من غفوته نعيق غراب. رفع رأسه فرأى الشاة معلّقة بين قمتين عاليتين، متقاربتين في الرؤوس، متباعدتين في الأسفل، عند قاعدتيهما المنصوبتين على شعفة الجبل. الفخ استقرّ في حجارة القمتين في الفجوة الفاصلة بينهما بسبب حجمه، فهوت الشاة إلى الهاوية، وظلّت معلّقة من قائمتيها الخلفيتين ورأسها يتدلّى إلى الأسفل. على رأسها يحوم غرابان. و.. على بطنها الممتلىء استقرّ عقاب نهم، ينقر البطن. بل.. يا ربّي. استطاع الوحش الجارح أن يبقر البطن حتى برز رأس الجدي وتدلى من أحشاء الأنثى. من البطن تدلّت أيضاً خيوط المخاط والدّم. في عيني الأم الفارغة رأى الفجيعة. كانت الشاة نتوجاً.

www.ibtesama.com

انحنى وشرع يتقيأ بصوت عالٍ كأنه يريد أن يتقيأ أمعاءه.

سمع الصوت ينطق بوعيد القدر، من فم القدر:

ـ اخنوخن! أنت قتلت أمي!.

ـ 10 ـ

لم يحدث أن وقع سوء تفاهم بينه وبين أهل الخفاء قبل اليوم. بل أن علاقته بهم، فاقت علاقته بالرعاة انسجاماً طوال السنوات الماضية.

طبيعي أيضاً أن العلاقة لم تبدأ بين يوم وليلة، ولكنها كبرت معه وتطورت مع نموه، وتوطدت مع اكتشافه لتاسيلي ورموز تاسيلي الأخرى. تكونت مع الفهم الطويل، القاسي، لأسرار الحجارة، ووصايا الأجداد المخطوطة على جدران الكهوف. ثم بدأت لغة الأم تضيء له الظلمات. ظلمات الأشياء والكهوف وما خفي على عقله الصغير من سلوك أهل الخفاء والظلمات. وكانت لا تمل من تكرار أسطورتها عن الربّاط المقدس الذي يجعل من كل كائنات الصحراء أخوة ينتمون إلى الأصل الواحد. وطبيعي أن يمضي وقت ليس بالقصير حتى يفهم عمق العلاقة وقداسة الأخوة. اكتشف الأسرار بعد أن وقف على قدميه ودبّ بين الوديان والصخور. رأى الجن على جدران الكهوف، ثم سمعهم كثيراً، وهم يتراطنون ويهمهمون بلغتهم الغامضة، ومضى وقت أطول قبل أن يقابلهم في الوديان متنكرين في ثياب الرّحل وتجّار القوافل. عندما قابلهم أول مرة في

www.ibtesama.com

وادي «أميهرو» وهو يرعى الجديان، عاد وحدّث الأم بما حدث. قال لها أن ضيوفاً نزلوا الوادي وأعطوه حفنة تمر وقطعة كبيرة من خبز الشعير. أكل الخبز، ولكنه أخرج لها حبّات التمر من جيبه. تأملت حبّات التمر وظلّت تبتسم في غموض. لم تخبره في المرة الأولى بهويّتهم. جاءها بعد شهور وأخبرها كيف قضى القيلولة في نجع كبير نزل السهل المجاور. سقوه ماء وأعطوه قطعة قماش جديدة. ابتسمت بنفس الغموض ثم قررت أن تفاتحه في أمرهم. قالت: «أنت كبرت، ويجب أن تعرف أننا ضيوف بؤساء على أهل الصحراء الحقيقيين. هل تعرف من هم أهل الصحراء الحقيقيين؟». لم يجبها. أثاره التعبير الصارم الذي سيطر على وجهها فظل يرمقها بفضول. أضافت: «أهل الصحراء الحقيقيين هم الجنّ. إنهم قبيلة كبيرة وقوية وطيّبة مثلنا. إنهم أطيب منّا. ولكنهم لا يتساهلون أبداً مع الأشرار. إذا ارتكبت في حقّهم شرّاً نلت الشرّ مضاعفاً. وإذا فعلت خيراً نلت على يديهم خيراً مضاعفاً. ألم يعطوك القماش؟ ألم يستضيفوك بالتمر والخبز منذ شهور؟. إنهم أخيار فاحرص على صداقتك بهم». سكت طويلاً ثم قال: «ولكنهم لا يبدون مثل الجن. إنهم بشر لا يختلفون عنّا في شيء». قالت: «ومن أخبرك أنهم يختلفون عنا؟ إن لهم وجوهاً كثيرة. ولو أرادوا بك سوء لطلعوا لك في هيئة غيلان. ولكنهم خرجوا لك بلباس النّاس حتى لا يفزعوك. يحرصون دائماً ألاّ يخرجوا للناس الطيبين بوجوه بشعة. إنهم حكماء يا ولدي». في تلك اللحظة انتبه لخيال يقف فوق رأس

www.ibtesama.com

أمه. رفع عينيه فرأى رجلاً طويل القامة، يرتدي لباساً شفافاً فضفاضاً، ملفعاً بعمامة بيضاء أيضاً. يبتسم له ويهز رأسه علامة الموافقة.

ابتسم أيضاً وهزّ رأسه موافقاً.

- 11 -

في نفس الليلة، بعد العشاء، روت له تاريخ القرابة التي تربط أهل الصحراء بأهل الخفاء. هجعت في عراء المدخل وطلبت منه أن يعدّ الشاي. شهد الأفق ميلاد البدر فبدأت روايتها: «في الزمان القديم لم تكن الصحراء مسكونة إلا بهم. الجن هم أهلها الأوائل. ثم جاءت قبيلة الإنس، ونزل أجدادنا ضيوفاً عند أجدادهم. وجدوا الصحراء آمنة ومسالمة وصالحة للسكن فطاب لهم المقام. تقدّموا إلى السكان الأصليين وطلبوا السماح لهم بالإقامة في الفردوس الصحراوي. قبل الجن إيواء أجدادنا شرط الالتزام بميثاق. أتدري ما هو الميثاق؟».

سكت لحظة ثم واصلت: «الميثاق يقضي أن يوافق أهلنا ألاّ يسفكوا دماً، وألا يصطادوا أنثى نتوجاً تحمل جنيناً، ولا ينزعوا عشبة من جذورها، ولا يقطعوا غصناً من شجرة خضراء. قبل الضيوف حكم المضيف ووافقوا على الالتزام بالميثاق. استقرّوا وتزاوجوا مع قبائل الجن وعاشوا في الصحراء الكبرى الآمنة في سلام. ولكن هبوب القبلي سبّب الجفاف وعمّم المجاعة فقام

www.ibtesama.com

الإنسان إلى أنثى الودّان وقتلها وهي نتوج في شهرها الرابع. ونزع العشب من أصله وأكل جذوره. قام إلى الأشجار الخضراء وكسر أغصانها اليانعة. وتشاجر إنسي مع جنّي حول الحسناء فكمن له الإنسي في الظلمة وقام إليه وقتله. خان الإنسان العهد وصنع بينه وبين أهل الصحراء الأصليين عداوة ما زالت قائمة إلى اليوم. انسحب الجن إلى الخفاء والظلمات وتركوا الصحراء للإنسان. فلا تنس. يا بني، أن الجنّ هم أخوتك في الدّم. واذكر، دائماً، إننا أوّل من خان العهد وبدأ بالعدوان».

قدّم لها كوب الشاي فرأى في عينها اليمنى دمعة كبيرة تومض تحت ضوء البدر.

- 12 -

عاد إلى الإبل.

هجع على الرابية. راوده النوم، ولكن الأرق انقضّ. هيمن السّكون الخالد ولكن صوت النّهار قرع رأسه: «اخنوخن! أنت قتلت أمي». وشبح الشاة المعلقة من قائمتيها الخلفيتين في الفراغ لا يفارق عينيه. وأسوأ ما في المشهد ليس وضع الشّاة المدلاّة في الهاوية، ولا هجمة الطيور الجارحة على الجثة المعلّقة، ولكن في شيء آخر لن يستطيع أن ينساه، وسيبقى مطبوعاً في ذاكرته إلى الأبد. ليس في شيء واحد وإنما في شيئين اثنين: البطن المبقورة وقد تدلّى منها رأس الجنين الميّت الملفوف في قماط من المخاط والدّم. وفي

www.ibtesama.com

النظرة الغريبة، الفاجعة، التي رآها في عين الشاة. نظرة مستسلمة للمصير، ولكنها تخاطب شيئاً خفياً وراء المصير. ترفع أمرها للجن والصحراء والقدر. تشكو بفجيعة ممزوجة بتسليم حكيم.

عاد بدنه يفزّ بالقشعريرة. بالغثيان. بالحمّى. تقيأ من جديد. تقيأ بوحشيّة أفزعت الإبل.

استمرّ المشهد. تمادى. تبدّى. حرق قلبه. قالت له الفجيعة في عين الشاة. «أنت السبب!». واستعاد صوت النهار: «اخنوخن. أنت قتلت أمي». تذكّر الآن أن صوت اليوم كان حزيناً، يائساً، فاجعاً أيضاً. صوت كأنه أنين مريض، أو هذيان محموم. الصوت ضاعف من بشاعة المشهد، وزاد الفاجعة فجيعة. صوت اليوم جعله يحسّ أنه آثم، قاتل، شرير. اليوم خالف وصيّة الأم ووجد نفسه عضواً في عشيرة الأشرار. اليوم خان العهد، وحنث بالوعد، وفتح على نفسه باب العداوة مع سكان الصحراء الأصليين.

ـ 13 ـ

في النهار، عندما هجع تحت طلحة لقضاء القيلولة، هتف الصوت فوق رأسه:

ـ أخنوخن. أنت قتلت أمي!

كرّر الإتهام ثلاث مرات بصوت واضح، صارم، يتوعد بالحساب.

www.ibtesama.com

وبالفعل، جاء الليل، ولم يتأخر الحساب. وكما حدث، في المرة الماضية، فإن الإبل أول من أحسّ بوصوله. أجفلت ودبّت فيها حركة قلق. وقفت وهي تتلفت حولها كأنها تراقب المخلوق الخفي. لم يحاوره. لم يكرر تهمة النهار. لم يضيّع وقته في مخاطبته. وجّه له ركلة قاسية أسفل السُّرّة جعلته يتلوّى طويلاً. ثم انهال عليه بالهراوة. كان مخلوقاً مدرّباً، حريصاً أن ينال المواضع الموجعة في البدن، متحاشياً، أيضاً، المواضع الخطرة التي قد يسبب نيلها بالكسور. كان مخلوقاً إنسانياً أكثر من الإنس.

- 14 -

استمرّ العذاب الليلي ثلاثة أيام متتالية.

يجيئه في النهار ويقرأ على رأسه التهمة، ويعود لينفّذ العقاب في الليل.

هذا النظام أدهش اخنوخن. فما معنى الاصرار على المخاطبة في النهار وجعل الليل أرضاً للقصاص؟ هل تقضي شريعتهم بإدانة الخطاة في النهار وتنفيذ الأحكام بهم في الليل؟ وهل صاحب الصوت هو نفسه جلاّد الليالي؟. هو لا يشك أن لكل عشيرة في الصحراء شريعتها. لم يستعر هذا اليقين من تعاليم الأم، ولكنه اكتشفه بعلاقته بكائنات الصحراء.

للنمل طريقته، وللسراب مسلكه، وللطيور نظامها، وللوحوش أخلاقها، وللسكون العظيم تقاليده. فكيف لا يكون لشعب أعظم،

www.ibtesama.com

وقبائل أعرق وأنبل مثل الجن شرائع خاصة؟ وأن يجهل معنى الشريعة، معنى نظام هذا العقاب، فهذا لا يعني أنهم لا يخفون وراء ذلك سرّاً أو حكمة؟. وهو يشك أيضاً أن يكون صاحب صوت النهار هو نفسه جلاّده الليلي. الصوت النهاري بائس، يائس، فجيع. وجلاّد الليل عنيف، قاس، عدواني، لا تنقصه الثقة بالنّفس. صوت النهار هو القاضي، ورسول الليل هو الجلاّد.

- 15 -

استمرّ القصاص ليليّاً.

فاض اخنوخن بالألم. ليست آلام الجسد هي التي أخرجته عن طوره في تلك الليلة، ولكن شيء آخر. ألم آخر. الألم الناجم عن الإحساس بالاثم. الألم الناتج عن الاحساس بخيانة العهد، ومخالفة وصايا الأم، وقيامه بقتل أم. قتل أمّاً لمجرّد التسلية. لو فعل ذلك لأنه جاع كبقية الأشرار لوجد لنفسه مبرراً ما. لو قتل بطريق الخطأ لوجد حجة تقنع الأم في قبرها وتطفىء في صدره نار الألم.

ولكنه لم يجد لجريمته مبرراً واحداً سوى الشّبع.

الآن عرف سرّ كراهيّة أهل الصحراء للشّبع.

الشّبع هو الشيطان الذي يصنع الشرّ. إذا شبع الإنسان فلا يرجى منه خير. إذا شبع الإنسان تفرغ للمكائد، وبادر بالظلم، وأبدع في اختراع الشر. إذا شبع الإنسان بشّع كل شيء وحوّل حتى التسلية البريئة إلى جريمة.

www.ibtesama.com

هو أيضاً سار في هذا الطريق.

شبع، فاسترخى، فتسلّى، فارتكب جريمة.

ما الذي سينزع من صدره الندم الآن؟ ما الذي سينزع من صدره الجمرة؟ كيف سيكفّر عن خيانة العهد؟ كيف سيمسح من عيني الأم ـ الشاة ـ فجيعتها؟ كيف سيمسح الدمعة المعلقة الآن في عين الأم اليمنى وهي تهجع في قبرها؟ كيف سيمسح الدم؟ كيف؟ كيف؟

ـ 16 ـ

ركلات الجلاّد الليلي لا تكفي.

ركلات الجلاّد الليلي تذكّره بجريمته وتزيد من شقائه. هراوة الجلاّد لم تعد تؤلم. فشل حتى الجن في أن يغسلوا قلبه من الألم، أو يطهرّوا روحه من المرارة. بل إن القصاص الليلي ضاعف من ألمه، ومن إحساسه بقبح جريمته. وكلما بدأت شعائر القصاص، وبدأ الجلاّد في تنفيذ الطقوس الليلية تصاعد العذاب وصعد إلى حلقه. وفي ليلة من الليالي فاض به العذاب فوجد نفسه يصيح بلا وعي في وجه الجلاّد:

ـ هل تسمع؟ أنا لم أقتل أمّك وحدها. هل تسمع؟ أنا، أنا قتلت أمي أيضاً. هل تسمع؟ هل تفهم؟

واصل الجلاّد عمله فهتف دون أن يحاول إتقاء الضربات:

ـ هل تظن أن عقابك يفيد؟ هل تظن أن عصاتك تؤلمني؟ ها ـ

www.ibtesama.com

ها ـ ها. أنت تضيّع وقتك وجهدك. جسدي مات ولم يعد يحس بالضرب. أريدك أن تخترع عقاباً أسوأ من الهراوة. ما هو العقاب الذي يليق بمخلوق قتل أمه؟ قل لي: ما هو أسوأ عقاب يستطيع أن يخترعه الجن للقصاص من قاتل الأم؟ ها ـ ها ـ ها!

توقف الجلاّد فجأة. ناح اخنوخن وتوسّل بصوت باكٍ:

ـ اقتلني! هل تستطيع أن تقتلني؟ الموت هو القصاص الوحيد.

انهار على الأرض. قبّل التراب، وناح بصوت طفولي عالٍ.

لم يعقّب الجنّي. ولم ينصرف. الجلاد لا يتكلّم أبداً. الجلاّد أخرس. الجلاّد رسول جاء للبلاغ المبين. الجلاّد يناقش ولا يدلي برأي. الجلاّد وسيلة لتنفيذ الحكم.

رفع اخنوخن رأسه. أحسّ بوجود الجلاّد ببدنه. بدأ يكتسب خاصيّة الجمال في الإحساس بحضور الجن. صرخ اخنوخن:

ـ أجبني. لماذا تتخبّأ وراء الحجاب كالنساء ولا تجيب؟ كلّمني! صارعني! لماذا لا تظهر؟ لماذا لا تتبدّى وتظهر وتصارعني كما يفعل الرجل مع الرجل؟ أرني وجهك!

وقف على قدميه. لم يجب الجلاّد. تراجع أخنوخن مرة أخرى:

ـ ولكن ما فائدة المصارعة؟ هل تستطيع المصارعة أن تخلّصني من الألم؟ لماذا لا تخبرني بسرّ الألم إن كنت جنيّاً؟ لماذا لا تخترع دواء آخر غير الضرب الغبيّ؟ لماذا لا تسخّر قدرتك

www.ibtesama.com

الجنيّة لاختراع ألم أكبر يقدر أن يبتلع ألمي؟ إفعل شيئاً أقوى من الجلد إن كنت جنياً حقيقياً!

انحلّت عقدة لثامه فتدلّى على الأرض وبقي طرفه الآخر ملفوفاً حول الرقبة. تمشّى في العراء دون وعي. لم ينتبه لسقوط اللثام. لم يلحظ حالة الاستنفار الشديد في قطيع الإبل. لم ير. لم يسمع. لم يحس بشيء غير الألم. لم ير غير النظرة الفاجعة في مقلة الأم، ولم يسمع غير نعيق الغربان فوق الجثّة. لم يحس بشيء غير الألم. عاد إلى الموقع في حركة وحشية. وجّه خطابه للجن:

ـ هيا نبكي. دعنا نبكي أمّنا. لماذا لا تشاركني البكاء على الأم؟ إنها أمي أيضاً!

وجد أخنوخن نفسه يركع ويبكي بصوت فاجع:

ـ آ ـ آ ـ آ ـ آ ـ ع ـ ع ـ ع ـ ع ـ ع...

تردّد الصوت الغريب في القمم كأن قبائل الجن كلها تردد معه النواح:

ـ آ ـ آ ـ آ ـ آ ـ ع ـ ع ـ ع ـ ع ـ ع...

ولكن أخنوخن لم يتوقف عن بكائيته الفاجعة.

ـ 17 ـ

الظهور.

التبدّي.

www.ibtesama.com

الخروج من حجاب الظلمات، من القمقم المدفون في المغارات.

الخفاء مزيّة خصّتهم بها الصحراء ليدافعوا بها عن أنفسهم من شرّ الإنس، ولا يتبدّون إلا إذا أنسوا للإنسي. الأم قالت له في الطفولة: «لا يتبدّون لك في الصغر خوفاً عليك. ولا يتبدّون لك في الكبر خوفاً منك. يتحاشون أن يُفزعوك طفلاً، ويخشون شرّك وأنت رجل. فلا تكن رجلاً شريراً إذا أردت أن تكسب صداقتهم». يومها سألها قبل أن تبدأ في شعائر الوجد الصباحي مع الشكوة: «وماذا أفعل حتى لا أكون رجلاً شريراً؟ ماذا أفعل حتى أكسب صداقتهم؟». قالت وهي تستعد للطقوس وتتهيأ للغياب معهم في الملكوت: «ألا تكون رجلاً شريراً يكفي. ألا تقتلع الأعشاب من جذورها، وألا تكسر الأشجار الخضراء، وألا تفسد تعاليم الأجداد على الصخور، وألا تفكّر في صيد أنثى الودّان وهي تحمل في بطنها جنيناً. هذا يكفي كي تكسب صداقتهم. واعلم أنهم إن صادقوك فلن يخونوك أبداً. إنهم أوفى من عاهد في الصحراء، فلا تخنهم أبداً». ثم اقتربت منه وحذرته: «وحتى تكبر وتكون عند حسن ظنّهم إياك أن ترمي الحجارة في الظلمات حتى لا تصيب أحدهم بسوء. إياك أن تحدق في المرآة اللعينة حتى لا تقع عينيك على أحدهم عن غير قصد من جانبهم. اصبر وانتظر ظهورهم. سوف يتبدّون لك بأنفسهم عندما يحين الميعاد».

انتظر الخروج.

www.ibtesama.com

خرج وراء الجديان إلى المراعي، ولكنهم لم يخرجوا إليه. سمعهم كثيراً وهم يهمهمون في المغارات، ويتمتمون بلغة لم يتبيّنها أبداً، ولكنهم لم يتبدّوا. حاول مراراً أن يفاجئهم في الكهوف، أو عند حضيض الجبال، ولكنهم ينسحبون إلى الخفاء ويأخذون لغتهم معهم بمجرّد أن يحسّوا به وهو يقترب من مجالسهم. في مرّة فاجأهم فتناهروا وتنادوا للسكوت. تحوّل الكلام إلى همس وسمع وقع أقدامهم وهي ترتطم بالحجارة أثناء انسحابهم. وفي إحدى الأمسيات. بعد المغيب بقليل، سمع غناء شجنياً حزيناً في السفح. نسي أن يكون جيران أهل تاسيلي في الوجود، وظنّ أن أحد الرعاة أراد أن يتسلّى بموّال المساء. ترك الجديان في الوادي وصعد السّفح. عند مقابر الأسلاف غزت أنفه رائحة الشاي والدخان. استعان بيديه في الصعود حتى بلغ صخرة كبيرة. خلف الصخرة، في الجانب المقابل للقمم العالية، وجد موقد النار. ولكن لا أثر للراعي، ولا للشاي. انصت طويلاً فلم يسمع شيئاً. وقف يراقب السفح فنزلت عليه وصيّة الأم كالوحي. ابتسم ونزل إلى الوادي. استمروا يتخفون ويهربون من وجهه إلى أن شبّ ورأت الأم أنه أصبح أهلاً لأن تسلّمه الجمال. بعثت بوصيّة إلى الرعاة في «تادرارت» فجاء أحدهم يهش قطيعاً من الإبل. لم تجازف بتسليمه القطيع كاملاً. اختارت ثلاثة جمال وناقة وثنيّاً واحداً وأعادت باقي القطيع مع الراعي إلى «تادرارت». أعدّت له زاداً من التمر ودقيق الشعير وقربة ماء وودّعته في أول رحلة يقوم بها في الصحاري

www.ibtesama.com

البعيدة. الرحلة التي عليه أن يبرهن بها أنه ودّع الطفولة والصبينة مع الجديان ودخل مرحلة الرجولة. سافر إلى «مساك صطفت» التي جاء منها الرعاة بأنباء السيول منذ شهرين.

هناك اكتشف إن الفوز بالرجولة ليس أمراً سهلاً، ورعي الإبل ليس أيسر من رعي الجديان كما حدّثه الرعاة. ربما كان أيسر حقّاً، ولكن الاسترخاء نصب له فخاً. وجد أن الجمال وديعة المسلك، بالمقارنة مع الجديان الشقيّة، ولا تستدعي اليقظة طالما يستطيع ألا يخاف عليها من الذئاب كما هو الحال مع الجديان. نسي أن اليقظة قدر الصحراوي. إذ من أين له أن يعلم أن اليقظة هي الشرط الأول للرجولة التي جاء من تاسيلي كي يقدّم فيها امتحاناً أمام الصحراء. اطمأن إلى العقال في سيقان الجمال، ولم يعرف أن الجمل المقيّد بعقال يمشي مسافات أبعد من الجمل الطليق. الجمل المقيّد يمشي إلى الأمام ليل نهار ولا يتوقف عن الحركة، لأنه يشعر بالقيد فيحاول أن يتحرر من القيد بالتنقل، بالحركة، بالسّعي المستمر إلى الأمام. يصبح القيد له هاجساً، وجعاً، سيفاً مسلطاً على الرقبة، فيحاول أن يقهره بالسعي، يجاهد بقطع المسافات في سبيل الخلاص. يعبر الصحراء لينال، في العبور، الحرية. لم يعرف أخنوخن حتى ذلك الوقت أن الجمل المقيد يغفل حتى عن الكلأ الذي جاء من أجله. يخترق الوديان الخضراء دون أن يتوقف. يدخل السهول المفروشة بالعشب ليعبرها إلى العراء. إنه لا يرى سوى الأفق. لأن حريته في المضي إلى الأمام، وخلاصه في الأفق. ولكن الأفق لا ينتهي إلا

www.ibtesama.com

ليبدأ أفق آخر. فيجد الجمل نفسه وقد قطع مسافة خرافية بين يوم وليلة، لأن الجمل لا يسعى، وإنما هو في سباق جنوني مع الأفق. وسوف يمضي وقت طويل قبل أن يفهم أخنوخن أن الرجل الحقيقي هو الذي يترك جماله ترعى في المراتع طليقة. لأنها لن تحتاج، في تلك الحال، لأن تسابق الأفق كي تتحرر من القيد. الوصول إلى هذه القناعة كلّفه ثمناً غالياً.

قيّد الجمال الثلاثة وكذلك الناقة. ولم يترك، في ذلك اليوم، إلا الثنيّ. وهذا خطأ آخر في عرف الرعاة الحكماء. فالثنيّ الطليق يستفزّ الجمال السجينة ويضاعف شقاءها بالقيد. وإذا تضاعف شقاء الجمال بالقيد فإن هذا سيجعلها تضاعف هروبها من نفسها ظناً منها أنها تهرب من قيدها.

خرج ليتفقدها في اليوم الثاني من هروبها، وارتكب خطأ آخر كان أسوأ من كل الأخطاء. ترك قربة الماء ظنّاً منه أن الإبل لن تبتعد كثيراً مطمئناً نفسه بأنها لن تستطيع أن تقطع مسافة طويلة وهي مكبّلة بالقيد.

مشى يوماً. مشى يوماً آخر. لم يدرك الإبل، فأدركه الظّمأ.

ترنّح واحتجبت الشمس وراء ظلمات الظمأ. انهار في عشية اليوم الثاني وسقط على الأرض. لم يعرف كم ظل في الغيبوبة.

أفاق بين يدي قبيلة صحراويّة رحيمة. طاف حوله الرجال واعتنت به النساء. سقوه حساء لم يذق في حياته مثيلاً له. وشرب ماء

www.ibtesama.com

سلسبيلاً لم يشرب أعذب منه، وأكل طعاماً لم يأكل ألذّ منه. في الصباح أحسّ بالشفاء فوجد أنهم جاؤوا له بجماله أيضاً. شيّعه شيخ مهيب خمّن أنه زعيم القبيلة، أهدى له رسناً جلديّاً مزيناً بثلاث حلقات نحاسية، وقدّم له نصيحة لا تناسب إلا الزعيم الحكيم. قال: «الرجل النبيل لا يقيّد جمله أبداً». ثم صافحه ومضى. بعد ثلاثة أيام من عودته اكتشف أن الحلقات النحاسيّة الثلاث، المثبّتة في طرف الرّسن. كانت ذهبيّة!

ليس هو من اكتشف الذهب في الرّسن، ولكن الفضل في ذلك يرجع إلى أحد الرّعاة العابرين. نزل في ضيافته وهو في طريقه إلى وادي «ابرهوه»، أعدّ له خبز الملاّل في الرّمل، وأوقد النار لتحضير الشاي. في ذلك الوقت كان الضيف يعبث بالرّسن ويتسلى بالحلقات النحاسية. وفجأة سمع أخنوخن ضيفه يقول: «عمل عجيب. عمل مدهش. هل تلقيت هذا العمل النفيس هدية من زعيم الجن؟». التفت اخنوخن فوجد الضيف يقلّب الحلقات المعلقة في الرّسن بفضول الخبراء.

قال الراعي: «انظر إلى الزخارف. إنها عمل يفوق رسوم الكهوف في الإتقان. يفوق نقوش الحجارة في القدم». اقترب اخنوخن وسأل بدهشة: «ولكنني لا أفهم». حدجه الراعي، تحت ضوء النار، بغموض. قال: «هذه أندر أنواع الذهب. هل تلقيته هدية من زعيم؟». سرد عليه اخنوخن قصة الرّسن، فهزّ الراعي رأسه بجلال وردّد: «ألم أقل إنه هدية من زعيم الجن؟ من يستطيع أن يمتلك ذهباً

www.ibtesama.com

بهذا القدم، بهذا الاتقان في النقش غيرهم؟». سأل أخنوخن ببلاهة: «هل تظن أن الجن هم الذين أنقذوني؟». راقبه الراعي زمناً. هزّ رأسه وقال بيقين: «وهل تشك في ذلك؟».

قصّ الحادثة على الأم بعدها بشهور فامتنعت عن التعليق فعرف أنها لم تشك أيضاً.

- 18 -

فشل في أن يوقف البكاء.

تلوّى في العراء. يشهق بصوت غير إنساني، بصوت حيواني، محاولاً أن يطهّر صدره من الوجع، ويلفظ، مع الصوت الوحشي، الألم. بكى كطفل تيتّم. بل إنه لم يبك بهذه الفجيعة حتى عندما سافرت الأم إلى المجهول، وتركت له جسدها الهزيل كي يواريه الحجارة ويطعمه للتراب. تيتّمه اليوم أقسى من تيتمه لما فقد الأم. فقد الأب قبلها ولكنه لم يحس بضياع اليتامى. ربما لأن ذلك حدث قبل أن يعي معنى الضياع والعزلة والحياة. وفقد الأم، ولكنها تركت له الصحراء. أو تركته أمانة في عنق الصحراء. عُهدة في يد الصحراء. خان العهد فتنكرت له الصحراء، أمه الثانية، أمه بالتبني. قتل الأم الأولى. الأم التي جعلته يحس بصلة القرابة بينه وبين الصحراء. بينه وبين كائنات الصحراء. بينه وبين الجنّ. بينه وبين الودّان. بينه وبين شجرة الطلح. بينه وبين طائر الوقواق. أحسّ أنه لا يبكي عزلته، ولا تيتمه، ولا فقدان الأب والأم، ولا الأم النَتوج

www.ibtesama.com

حبّاً في التسلية، وإنما.. يبكي غضبة الصحراء. يبكي ضياعه الأبدي.

لم يعرف كم مضى من الوقت. لم يعرف متى انصرف جلاّده الليلي. ولم يعرف متى تسلل القبس السري وشق الأفق بخيط شحيح من ضوء مدبراً مؤامرة فصل السماء عن جسد معشوقته الخالدة: الصحراء.

نهض. ترنّح خطوات. سقط مرة أخرى. زحف على يديه وركبتيه. شقّ الوادي زاحفاً. صعد المرتفع المزروع بمقابر الأسلاف. تنقّل بين الأكوام المستديرة زاحفاً. اهتدى إلى قبرها. القبر الذي شيّده منذ سنوات ونسي حتى أن يسقيه بالماء بين الحين والآخر. انكفأ فوق القبر ولثم الحجارة. احتضن الحجارة. وشعر كيف يتدفق الدمع الحار على العين التي احتضنت بحر النهار.

لم يعرف الحكمة القاسية التي تقول أن القبر الذي تتساهل بريّه بالماء سيأتي يوم تضطرّ فيه أن ترويه بالدموع.

- 19 -

انقضت ثلاثة أيام قبل أن يعود صوت النهار وتليه زيارة الجلاّد في الليل. استسلم لقدره وترك الجلاّد يمارس عمله. انهال عليه بالهراوة حتى أحسّ بالغثيان. انكفأ على بطنه وشرع يتقيأ. ما أدهشه أن الشعور بالإهانة هو ما أيقظ فيه الغثيان وليس الألم. في الصحراء لا يضرب بهذه القساوة حتى العبد المعاند، حتى الحمار الكافر. في

www.ibtesama.com

تاسيلي لا يضرب الرّجل رجلاً حتى بقشة، حتى بعود أخضر. فهم الآن حكمة الجنّ. فهم الآن أنهم يريدون إهانته. إذلاله. الذلّ هو ما يليق بمخلوق يصنع فخّاً لاصطياد أمّ لمجرد أنه شبعان ولم يبق له عمل آخر إلا أن يتسلّى. الإذلال هو ما يليق بالصحراوي إذا اختار، بلا سبب، أن ينضم لعشيرة الأشرار. وها هو يسمع الإدانة في النهار ليتلقى الجزاء في الليل. الجزاء اللائق بالعبيد. بالحمير. بالأشرار. لأن الذل، في عرف الصحراء، أشرّ من الموت. الذل عار، والعار أسوأ من الموت. فإلى متى سيتحمل أن يظلّ عبداً؟ إلى متى يرتضي أن يهان ويضرب كالحمار؟ هل تستحق الحياة تحمّل العار؟

في تلك الليلة لم يتوقف الجنّي عن ضربه حتى احتمى منه بقبر الأم.

- 20 -

اكتشف سراً آخر.

كلما أقبل الجلاّد، واشتدّ عليه الضرب هرب إلى السفح، واعتصم بقبر الأم. كلما لجأ إلى القبر تراجع الجنيّ عن مطاردته. فهل هو إجلال للمقابر والموتى من جانب الجن، أم تقديس للأمّ؟ وهل يقدسون أمه لخصال الفضيلة والخير أم لأنها تمت للجن بصلة قرابة؟ لقد أخبرته عن أخوة أهل الصحراء بأهل الخلاء، وحدثته مراراً عن رباط الدّم بينهما، كما لم يأت ذكر الجن إلا وتنبري تتحدث عن فضائلهم وخيرهم وطيبتهم. والحق أنهم كانوا معه

www.ibtesama.com

رحماء دائماً، ولم يبخلوا عليه بالعطايا في صباه. ظل يفكر في صلات القربى بين كائنات الصحراء حتى توصّل إلى أن كون جلاّده هو أحد اخوته هو أمر جائز. بل إن شعوراً خفيّاً خامره بأن يكون جلاّده الليلي أخاً له من قبيلة أهل الخفاء.

ولكن الاكتشاف لم يجبر الجلاّد على التراجع. كأنّه يؤدي واجباً مقدّساً. كأنه ينفذ حكماً إلهيّاً. كأنه رسول القدر. كفّ القدر.

احتمى من حملة التعذيب بقبر الأم مرة أخرى.

ثم أصبح يقضي لياليه متوسّداً قبر الأم.

ـ 21 ـ

حوّل القبر إلى مأوى يعتصم به في الليالي.

هجر الوديان والكهوف وصنع من المقبرة بيتاً يأوي إليه في الليل. كان صوت الإدانة يزوره في الوديان نهاراً فيعرف أن الجلاّد سيزوره في الليل. ينتظر حتى المغيب فيترك الإبل في الوديان ويحتكم إلى الحرم. يوقد النّار بجوار القبر ويصنع شاي المساء. يتعشى بالتّمر أو يقضم من خبز الملاّل الذي تبقّى من رغيف القيلولة. يعدُّ الرغيف في رمل الوادي مستثمراً أمان النهار. وعندما يقترب الظلام يحمل تموينه إلى الحرم.

استمر على هذا الحال إلى أن اضطر أن يلتجىء إلى طرق القوافل لمقايضة أحد الجمال بالشّعير. غادر السهل مبكراً عازماً أن يتحايل

www.ibtesama.com

على الوقت ويختصر المسافة التي تعوّد أن يقطعها في أربعة أيام إلى يومين فقط.

ولكنه عاد من منتصف الطريق.

جاءه رسول الإدانة بمجرّد أن قطع وادي «أميهرو». وفي الليل جاءه على يدي الجلاّد أعسر حساب. اعتدى عليه بضرب وحشي فاق كل توقّع. واستخدم في عدوانه أسوأ الأدوات المتداولة في الصحراء لتأديب العصاة وإهانة الحمير والعبيد. بدأ باستعمال قبضته. تعب فاستبدلها بالعصا. ثم استبدل العصا بسوط أحرّ من الجمر. أدرك أخنوخن أن الجلاّد اختلى به بعيداً عن حرم القبر وقرر أن يضاعف العقاب انتقاماً لليالي التي قضاها بدون جزاء محتمياً بالحصن المقدّس. ليلتها لم ينجُ من يدي الجنّي بسهولة. ترك الجمل وهرب. ظلّ يجري عبر العراء دون أن يتوقف الجان عن مطاردته. عاد إلى الحرم في آخر الليل. ممزّق الثياب. ملوّثاً بالدّم. بدنه مغسول بالعرق والذلّ.

ـ 22 ـ

اكتشف حقيقة أخرى.

اكتشف أن فرحه بالحرم لم يطل. الحصن تحول إلى سجن. وهو، أخنوخن الطائر، الطليق المتنقّل بين الكهوف والقمم والوديان، تحوّل، فجأة، إلى أسير في هذا الحصن، في هذا السجن. اكتشف أن النهار وحده لا يكفي حتى لردّ الإبل على

www.ibtesama.com

أعقابها دون أن يدركه الليل في منتصف الطريق، فكيف بالوصول إلى طريق القوافل، أو بلوغ منتجعات الرعاة؟ وإذا استمر مهدداً بالجلاد حتى حلول الشتاء فإن قامة النهار لن تكفي حتى لاستجلاب الماء من البئر. وكل الدلائل لا تشير إلى أن الجلاد ينوي أن يتراجع في الوقت القريب، فما العمل؟ كيف يستطيع أن يستعيد احترامه لنفسه ويغسل عن جسده عار الضرب الذي حوّله من مخلوق نبيل، مكابر، إلى حيوان أسوأ من حمار كافر؟

ولكن هاجساً شقياً قال له: «أنت لست حماراً. أنت قاتل. أيهما أبشع في عرف الصحراء: أن تكون حماراً عنيداً، أم قاتلاً للأمّ؟ أليس الحمار أكثر نبلاً من قاتل في شرائع الأرض وأعراف السماء؟».

سرت في بدنه رجفة. هام بين القبور. ترقرقت مقلتاه بالدّموع.

أجاب الهاجس بصوت مبحوح: «لا فرق بينهما، لأنهما، كليهما، جديران بالموت».

ـ 23 ـ

وجد نفسه مشدوداً إلى حجارة القبر مثل معزاة مقيّدة إلى الوتد بحبل. أصبح الحرم سجناً بعد أن كان خلاصاً وملاذاً. وإذا كان للمعزاة سيّد يأتي لها بحزمة عشب، فإن القدر جعل منه عبداً بدون سيّد. هرب من عبودية العصا وعار الضرب ليجد نفسه طفلاً يحتمي بتلابيب الأم، وعبداً لحجارة قبر!

www.ibtesama.com

فكر أيّاماً في هذا المأزق، ثم توصّل إلى حيلة أُخرى.

قضى ليلة كاملة يبكي فوق الحجارة يتوسّل الغفران، ونهض في الصباح وبدأ يحفر القبر. تذكر عندما سافرت الأم وقام بحفر المثوى في مقبرة الأجداد، وقال لنفسه أنه لم يتخيّل أن يضطر، بعد سنوات، للاستعانة بالرّفات ونبش الحفرة من جديد. مسح الدّمع من عينيه والعرق عن جبينه، واستمرّ يزيح الحجارة والتراب حتى حلّ الضّحى.

بلغ الرّفات:

تغذّى التّراب بأجزاء من الكفن وتولّت الديدان أمر الجسد. جرّدته من اللّحم وتركت هيكل العظام. أدهشته ضآلة العظام ونحافة الأطراف. الهيكل في حجم طفل حديث الولادة. وقفص الصدر كأنه لجدي أو ماعز. بلغ الجمجمة. أزاح التراب عن جزئها العلوي. ما زالت خصلات بائسة من الشيب تتمسك بالعظم. فوقها تيبّس الطين وقطعة بائدة، متآكلة، باهتة، من الكفن. أزاح مزيداً من التراب بيدين مرتجفتين. بلغ الطرف الأيمن من الجمجمة. مسح الغبار عن العين اليمنى. عين الشفقة، والرحمة، والحب. العين التي تنزف بالدّمع عندما يستجيب قلب الأم للانفعال، والمحبّة والحنين.

فوجيء.

حدّقت فيه مقلة المحبة بنظرة خاوية، عمياء، قاسيّة.

ظل ينحني في فوهة القبر في ذهول. خيّل له أن قلبه أيضاً

www.ibtesama.com

توقّف. التنفس أيضاً توقف. جاهد لالتقاط الهواء واستعادة النَّفَس. قفز خارج القبر بأعجوبة. تلوّى في العراء كالمجذوب. دنّس حرم السكون بأصوات غريبة، غامضة. ثم استولت عليه نوبة من القيء.

ـ 24 ـ

حمل معه القبر في تنقلاته.

عرف أنه لا بد أن ينقل القبر في أمتعته إذا أراد ألا ينزل إلى الأم، ويشاركها الإقامة في القبر. ولمّا كان الحجاب بين الأحياء والأموات قائماً كما قام يوماً ـ بسبب الخيانة ـ بين أهل الصحراء وأهل الخفاء، ولمّا كان طريق الوصل بينهما مقطوعاً إلى الأبد كما أكدت له الأم بنفسها مراراً، ولمّا كان الإنسان على استعداد أن يصنع المستحيل في سبيل استمرار الحياة ما دام على قيد الحياة، فلا خلاص إلاّ بالمعجزة. إلا بإخراج الأم من رقدتها القاسية لتهاجر معه وتتنقّل، وتعيش حياة الصحراء. لا بد أن تخرج إليه من القبر إذا أراد هو أن يستمرّ في الحياة. لا بد أن يعود الميّت من الموت إذا شاء الحي ألا يخرج من الحياة. القدر شاء أن يحكم إغلاق الدائرة وصنع له أحد الخيارين. القدر هو الذي رسم الخطّة. القدر قال له: إما أن تذهب إلى حضن الأم، أو تأخذ أمّك معك في حضنك. لا خيار ثالثاً. نفس القدر الذي ساقه إلى هذا المصير بلعبة. بتسلية. بشرك بائس صنعه من الشجر لقتل الوقت. الوقت النفيس الذي لم يجرؤ صحراوي على الاستهتار به يوماً فكيف بـ «قتله». ولولا الترف. لولا

www.ibtesama.com

السيول والخيرات التي غمرت تاسيلي، لولا امتلاء المطامير بالتمور والحبوب، لولا النعمة والشبع لما تجاسر على «قتل» الوقت بهذه الطريقة الغبية، الشريرة التي يستنكرها عرف تاسيلي، وتستفظعها شريعة الصحراء. وها هي النتيجة، بدل أن يقتل الوقت قتله الوقت. بدل أن يصطاد طريدة، ليس في حاجة إليها أصلاً، اصطاده القدر. وبدل أن يهنأ بالسكينة والسكون لاحقه جلاّد الليل وصنع من جسده دابّة تتلقّى الهراوة والعار!.

فكيف لا يمد يده إلى أمه ويأخذها معه إلى الصحراء؟ كيف لا يحتمي بها كما احتمى بها دائماً؟ بل وماذا سيفعل في تاسيلي بدون أمه؟ ماذا فعلت به الوحشة طوال الأعوام الماضية التي أعقبت سفرها؟ في الأيام الأولى هام بين الكهوف كأشباح الجن. غالب الإحساس بالضياع. ضياع أشرس من ذلك الضياع الذي أحسّ به أهل الصحراء عندما فقدوا كتاب الحكمة المقدّسة «آنهي». كان يبكي بصوت طفولي عال فتردد الكهوف الصدى. سمع الجنيّات تنوح أيضاً. وشاركه الجن الحزن والمأتم. قابل بعضهم في الجبال الجنوبية المشرفة على وادي «أميهرو». وجاءه آخرون في المغارة، وسهروا معه الليل كله. ناحت الجنّيات مهدّلات الشعور، ولكن الشيوخ التزموا الصمت في وقار وشرعوا ينصتون للسكون المقدس. تنقلوا حوله. أشعلوا النيران وأعدّوا الشاي. جاءت العجائز بأطعمة شهية الرائحة، ولكنه لم يستطع أن يأكل برغم الإلحاح. تقاطر الجن على المغارة ثلاثة أيام متتالية. ثم ارتدوا لباس المهاجرين وذهبوا إلى

www.ibtesama.com

«تاسيلي ناهجّار» وأخبروا الرعاة بالوفاة. في اليوم الرابع ازدحمت المغارة بالمعزين من قبائل الإنس. تقبّل منهم التعازي صامتاً أيضاً.

ولكن لا تعازي الإنس، ولا تعاطف الرعاة استطاع أن يغلب الضياع ويقتل فيه الإحساس الوحشي بالوحشة.

ثم..

ثم عادت إليه الأم.

بدأت تزوره كل ليلة. تجلس في المدخل وترفع صوتها بالأغاني الصحراوية الحزينة. بالمواويل الشجنية التي تتحدّث عن الضياع. ضياع «آنهي». ضياع «واو»، ضياع المعشوق الذي لم يعد من رحلة القوافل. وفهم أن الضياع هو قدر الصحراوي. الضياع هو قدر الإنسان.

استمرّت تزوره بانتظام حتى طلب منها ذات ليلة: «أريدك أن تمخضي لي الحليب يا أمي كأيام زمان. الشكوة جفّت في الزاوية وأنا لا أريد اللبن إلا من يديك». والحق أنه كذب عليها. لم يكن اللبن هو الغاية، ولكنه أخفى عنها رغبته في أن يراها وهي تهيم في الوجد. كان يقع في الوجد دائماً عندما يراها تترنّح وتهيم وتجذّب وهي تمخض الحليب المقدّس.

ذهبت في تلك الليلة ولم تعد أبداً. فكر فيما يمكن أن يغضبها، ويسبّب في هذا المسلك المفاجىء. فكّر طويلاً.

لقد نسي ما قالته له يوماً من أن الأموات إذا ذهبوا يستطيعون أن

www.ibtesama.com

يغنّوا، ولكنهم لن يستطيعوا أن يمخضوا حليباً للأحياء دون أن يستدرجوهم إلى الموت أيضاً.

ـ 25 ـ

سيرة التميمة عبرت تاسيلي إلى الشرق والشمال فوصلت «آزجر»، واجتازت القمم الغربية فبلغت «آهجّار». وحملها تجّار القوافل إلى «آير» و«آضاغ» في أقاصي الجنوب.

لم يقل الرعاة، الذين تناقلوا السيرة، أن الجنيّ الذي اختار الإقامة مع الجن في تاسيلي قد اتّخذ من جمجمة الأم تميمة تحميه من اعتداءات جيران الظلمات، لأنه لم يبح لأحد بسرّه. لم يخبر أحداً بأمر النّزاع مع أهل الصحراء القدماء، ولكن الرعاة قالوا إن الجنيّ أخنوخن لم يطق فراق الأم ليس لأنها أم، ولكن لأنه لم يعرف في حياته إنساناً غيرها، فلحقها إلى القبر وأخرج عظامها واحتفظ بها في جراب السّرج كي تؤنّسه في وحدته.

كلما سمع الشائعة من عابر جوّال، أو راعٍ مهاجر، ابتسم بكآبة والتزم الصمت.

ظلّ يتنقل بها في رحلاته كلها. بل حرص أن يحمل الجراب معه حتى في تنقلاته بين الوديان ساعياً وراء قطيع الإبل. يجلس في المراعي. يخرج الجمجمة في الجراب. يحررها من غلالات القماش، يرشّها بالماء، يمسحها بعناية بطرف لثامه. في العين اليمنى الفاجعة وضع قطعة من وبر الجمل كي يخفي الفجيعة في العين.

www.ibtesama.com

ولكنه حرص أن يترك خصلات الشعر الأشيب، الشّاحب، الذي نجا من شراهة التراب، مشدودة إلى قمة الجمجمة. وعندما ينتهي من الطعام ويحتسي الدور الثالث من الشاي، يلف الجمجمة بغلالات القماش، ويعيدها إلى مثواها الجديد في الجراب.

استمرّ على هذه الشعائر إلى أن سلبها منه السيل.

ـ 26 ـ

السيل أيضاً لم يهاجمه عبثاً.

السيل أرسله القدر كجزاء، كقصاص جديد على إثم جديد.

هجع في وادي «أميهرو» في ليلة شتوية قاسية. في المساء، عند الغرب، لاحظ كيف تتزاحم غيوم غاضبة وتزحف على القمم البعيدة. قمم تاسيلي ناهجّار. ولكنه لم يتوقع أن تدركه بأنفاسها بهذه السرعة. في الليل نزل البرد. استيقظ فوجد النداوة تزرع الوادي بطبقة جليدية بيضاء. كان يرتجف. أطرافه جمدت. فقد القدرة على تحريك أصابع اليدين. مضى وقت طويل وهو يدفئها بأنفاسه. ثم تحرّك ببطولة حتى بلغ أقرب شجرة. تحسس الأغصان ولكنه لم يتبيّنها في العتمة. وربما ساهم الجليد في تجفيفها فبدت يابسة. انتزع كوماً وأوقد النّار. ارتفعت ألسنة اللهب. ظلّ يحتمي بالنار ويحوم فوقها كفراشة بلهاء. اقترب أكثر فتشبّث لسان النار بكم الجلباب. دسّ الكم في الأرض وأهال عليه التراب باليد الأخرى. كاد يحترق فيما استمر يرتعد من الجليد. لم يسمع الأنين الفاجع في

www.ibtesama.com

الأغصان الخضراء. لم ير دموع الشجر. لم ير نزيف الدّم في أعضاء الشجر. لم ير بركة الدم التي استنزفتها النار، وسالت على الرمل بجوار الموقد.

- 27 -

أيقظه الفحيح. حشرجة الجمر في الموقد لحظة هاجمها الغمر. حشرجة مكتومة، فاجعة. هبّ واقفاً فاكتشف أن السائل، السلسبيل، الوديع الذي يعبده أهل الصحراء، قد تحوّل إلى غول. في البدء حفر تحت قدميه بشقاوة الأشقياء. تخلّت عنه الأرض فسقط على قفاه. تلقفه اللسان الوحشي وفرّ به عبر الوادي. دحرجه الموج المجنون مسافة طويلة. تجرع الماء الممزوج بالطين والبعر والقشّ. أمسك بشجرة حلفاء ملساء، وأحسّ كيف دفعه اللسان المتوحش إلى الأمام فاقتلع الشجرة من جذورها، ورافقته في رحلته إلى المجهول.

في الرحلة اعترضته أشجار، وحجارة، وأجسام لم يميّزها في قعر الوادي، ولكن السيل لم يتح الفرصة ليتشبّث بها. كلما مدّ يده وحاول النجاة انتزعه الموج المجنون وقذفه بعيداً عن يد النجاة. الصحراء تسخّر الأشجار والحجارة والأجسام الخفيّة لإنقاذه، والسيل يقاتل لإبعادها عنه، وأخذه بعيداً عنها.

استمرّ العراك.

اعترضته شجرة كبيرة. طلحة كبيرة. تشبّث بجذعها بكلتا يديه. التفّ حولها بجسمه كالثعبان. التصق بها. التحم بها. أصبح جزءاً

www.ibtesama.com

منها، وأصبحت جزءاً منه. حاول أن يثبّت قدميه على الأرض فسحب السيل الأرض من تحته وجرف الرمل. بدأ يتقيأ الروث والطين والقش، دون أن يتخلى عن التحامه بالطلحة. بشجرة الخلاص.

بقي يجاهد طوال النهار. مع العشيّة هدأ الموج ونزل مستوى الماء. قبل حلول المساء تراءت قمم الأشجار مع انخفاض مستوى السيل، فتخلّى عن شجرة الحياة وقطع الوادي إلى الشاطىء. استلقى على الضفة ونام.

في صباح اليوم التالي اكتشف أن الشجرة التي أنقذته من الموت ووهبته الحياة نفس الطلحة التي جرّدها من الأغصان الخضراء وأطعمها للنار كي يتدفأ بها.

الشجرة أعادت له الحياة، ولكنها أخذت منه تميمة الحياة.

ـ 28 ـ

صمم أن يستردّها ولو طارت إلى السماء.

انتظر حتى جفّ الماء في الوادي. بدأ بحثه في الأشجار المجاورة. فتّشها شجرة شجرة، كما تفقّد حجارة الوادي وصخوره. لا أثر للجمجمة ولا للأمتعة.

جلس على المهري وسافر عبر مجرى الوادي. هاجر وراء السيل في مسيرة اثني عشر يوماً.

www.ibtesama.com

في النهايات انقسم الوادي وتعدّد المجرى في أودية صغيرة، تتوازى وتتجاور حيناً، وتتنافر وتتباعد في مواقع أخرى.

قضى شهراً كاملاً وهو يتفحّص الوديان، ويفتّش الشُعب. بعد ثلاثة أسابيع عثر على طرف السرج الأمامي مشدوداً إلى شجرة حلفاء كثيفة على ضفة إحدى الشّعب، ولكن الجمجمة طارت إلى الأبد.

أخيراً يئس.

وعندما يئس، وعرف أهل الخفاء أنه يئس، زاره رسول الإدانة في الليل وسرد على رأسه قصة مفاجئة. لم يأت في النهار، ولكنه تعمّد الإخلال بالخطّة فجاءه بالصوت بدل السوط. لم يعرف سرّ التحوّل إلا بعد أن تكلّم الصوت:

- هل نسيت يا شقي أنك طلبت منها الحليب؟ هربت لتأتي لك بالحليب، ولم يكن أمامها إلا أن تتحول إلى أنثى الوذان؟ لا بد أن تتحوّل إلى أمّ إذا أرادت أن ترضعك الحليب. هل نسيت يا شقي إنك لم تتوقف عن رضع الحليب من ثديها حتى بلغت السابعة؟ كنت وحيداً، ولم يكن أمامها إلا أن تدلّلك. كنت وحيدها المدلّل. وعندما أرادت أن تدلّلك مرة أخرى صنعت لها شركاً وقتلتها.

سكت الصوت لحظة بنفس النبرة الواضحة، القاسية:

- نسيت أن أقول لك أنها أمي أيضاً. لم تخطىء عندما ناديتني بـ «الأخ» لأن الدّم هو الذي تكلم فيك يومها. لقد قتلت أمك

www.ibtesama.com

وأمي يا أخنوخن، ورحت تحتمي من جريمتك بجمجمتها. ما أشقاك يا أخنوخن! ما أشقاك يا أخنوخن!

ردّد «ما أشقاك يا أخنوخن» عدة مرّات وهو ينسحب ويبتعد. ثم سمعه ينشج في العراء ويشهق بأنين موجع.

وجد بدنه مبللاً بالعرق. بسائل لزج لا شك أنه عرق. لثامه مبلل. لزج. و... سكين من نار تستقر في صدره. أحس بضيق في التنفس. وقف على قدميه. ترنح. سقط على الأرض. تزحزحت السكين النارية وصعدت ببطء إلى أعلى. نحرت الصدر ووجدت الطريق إلى الحلق. عبرت البلعوم شقّت البلعوم بحريق. توقفت في الحلق. تدفّق النزيف. جوفه كلّه ينزف. ما أرحم الجلاّد القديم بالمقارنة مع زائر الليلة. ما أقسى الصوت بمقابل السوط. ما أسهل تعذيب الجسد بجوار التنكيل بالروح. ما أهون نزيف البدن بالمقارنة مع نزيف الرّوح.

لم يع. لم يحس. لم يتعب. ظلّ يركض حتى انشقّت الصحراء وولدت الفجر. حتى وجد نفسه يتسلّق القمّة. حاول أن يسحب الهواء، أن يتنفّس، أن يزحزح السكين إلى أسفل، أو إلى أعلى، ولكن السكين تشبّثت بالحلق. تحرق وتذبح وتسدّ النَّفَس. احتجبت الجبال. تاهت الصحراء. غاب العراء الأبدي. اختفى الإحساس بالسكون الخالد. و.. انفصل أخنوخن عن الصحراء. وجد نفسه في منفى لا يعرفه. في أرض أخرى غير الصحراء. وأحس أنه كائن غير الصحراوي.

www.ibtesama.com

حاول أن يلتقط الهواء.

سدّت السكين النارية كل المنافذ، والأوعية، والقنوات، والأوردة. جحظت عيناه. دارتا في محجريهما في تحية وداع مهداة إلى الملكوت الصحراوي في الأفق. أحاط لثامه برقبته. لم يلحظ كيف سقط طرف اللثام وتعلق بنتوء بارز، شرس، في الصخرة. أطلق أنيناً طويلاً، موجعاً، كأنه جمل يذبح. و.. قفز. قفز من القمّة.

لم يسقط إلى الأرض. القدر الذي حول اللثام، في رمشة، إلى فخ، تلقفه قبل أن يبلغ السفح.

لم يهبط إلى الأرض. إلى الحضيض.

شدّت الصخرة طرف اللثام فوجد نفسه معلقاً في برزخ بين السماء والأرض، وطرف اللثام الآخر ملفوف، كثعبان الأدغال، حول رقبته.

لحظتها، فقط، أحسّ بتزحزح السكين وانزلاقه إلى مكان ما. تنفّس. شهق. طَلّق التنفس. ودّع النفس، فاستقرّ في مقلتيه تسليم، وخلاص، وبسمة غموض. نفس الغموض الذي نطقت به مقلتا الأم المشدودة إلى الفخ، المعلّقة، من رجليها الخلفيتين، في الجبل.

موسكو

1991 /5 /2

www.ibtesama.com

منتدى مجلة الإبتسامة
www.ibtesama.com
مايا شوقي

www.ibtesama.com

البـرزخ

www.ibtesama.com

منتدى مجلة الإبتسامة
www.ibtesama.com
مايا شوقي

www.ibtesama.com

اشتعل الفضاء في الواحة.

بقيت في القمة، وسط فروة السعف، فوق العش، تحتمي بالنخلة، وتحمي الفرخ.

في الأسفل، عند الجذع، كمن مقاتلان خلف تلة رملية صغيرة. يرتديان ثياباً فضفاضة، ناصعة. معمّمان بلثامين ناصعين أيضاً كأنهما أقبلا للمساهمة في فرح أو عيد وليس للمشاركة في اشتباك. أحدهما نحيل، طويل القامة، يمسك بسلاح قصير الذراع. أما الثاني فمكتنز، عريض المنكبين، يمسك بسلاح أطول ذراعاً. زحف النحيل على مرفقيه حتى رأس التلة. سدّد الأداة إلى الشمال و. . :

ـ طاخ ـ طاخ ـ طاخ. . .

ثلاث مرات. فزعت. تكوّر القلب وتدحرج إلى أسفل. صفقت بجناحيها دون أن تدري. وجدت نفسها تتخلى عن الفرخ وتطير. اخترقت الفروة وخرجت إلى الفضاء. رفرفت بهلع وهي تتجه صوب

www.ibtesama.com

الأحراش البعيدة. ولكنها سمعت النداء البائس:

- صوْ - صوْ - صَوْ...

فتذكرت الفرخ. عاد لها العقل الطائش فحلّقت في دائرة طويلة وعادت باتجاه النخلة المكابرة. في اللحظة التي مرقت فيها داخل الفروة تزلزلت الواحة بالدوي:

- بووم!

اهتزت النخلة، وشاهدت أفراداً من العشيرة ينتشرون فوق الأحراش الشمالية، ويتشتتون في الفضاء. ظلت ترفرف داخل الفروة في احتيار. حلّقت فوق العش. ظل الفرخ المزغب يرفرف بجناحيه في عجز، شاهراً رقبته البائسة الصغيرة في الهواء، باحثاً عن صدرها. حطّت فوقه وغمرته بريشها الدافىء، الكثيف.

دسّ رأسه في الريش، هرشها بمنقاره الشقي في الصدر. ظل الصدر يعلو ويهبط. في الناحية الأخرى ارتفعت سحابة من الغبار. غطّت قرص الضُحَى وأخفت سرب العشيرة. في الأحراش ارتفع ذيل طويل من دخان.

هدأ الدويّ المتبادل. توقف حوار البارود. ولكنها استمرت ترتجف. في ريشها ارتجف الفرخ وازداد بها التصاقاً. تلاحماً. تداخلا، فأصبح نبضهما، رجفتهما، إيقاعاً محموماً واحداً. ظل الغبار يتصاعد في الفضاء. تبعه دخان الأحراش الشمالية في ذيل شفاف، انتهكته أشعة الشمس. تخاطب المحاربان عند الجذع.

www.ibtesama.com

استند النحيل على النخلة وتلهى بالتخلّص من الغبار. في حين انهمك الآخر في الاعتناء بالسلاح وشحنه بقطع الذخيرة. راقبتهما من خصاص السعف وتمنّت أن تبلعهما الأرض. لو بلعتهما الأرض أو طارا في الفضاء، مع حبيبات الغبار، لاستعادت قلبها وذاقت طعم الخلاص والسكينة، لو اختفيا لضمنت سلام العش وسلامة الفرخ العاجز، الخائف، الوحيد.

هيمن سكون.

فكّرت. لا يكمن السبب في المخلوقين. فهما يحتميان بالجذع كما تحتمي هي بالقمة. بالفروة. بل المصيبة أنها لا تمتلك مخالب مثل الصقور. لو كانت صقراً لاحتضنت الصغير بين مخلبيها وفرّت به إلى أبعد نخلة، أو دغل أو واحة. لا. الذنب ليس هنا أيضاً. ليس من حقها أن تحلم بامتلاك ما لم تهبه الطبيعة. هل هي أحكم وأذكى من الطبيعة حتى تتجاسر وتحمل نفسها وزر هذه الأمنيات البلهاء؟ الخطأ في مكان آخر. أين الخطأ؟ و. . .

ـ طاق. طاق!

ثم:

ـ طق ـ طق ـ طق.

لم تعد تحتمل. وجدت نفسها تحلّق عالياً، بعيداً، غائبة، ناسية. وما أن عادت إلى نفسها حتى دارت وعادت إلى الفروة. إلى العش. وجدته ينتفض كأنه يحتضر. يزقزق بصوْصوته الفاجعة ويبحث عن حضنها الدافىء المفقود. ضمته إلى صدرها وضمت أيضاً رجفته إلى

www.ibtesama.com

رجفتها. هَدَأ حوار النّار، راقبت تنقّل المحاربين على طول الجبهة الجنوبية. غيروا المواقع واحتموا بالاستحكامات الرملية، ولكن الجار النحيل وضيفه البدين لم يتحركا. أفلت منها الذّرق رغماً عنها. أفلت من الفزع فسقط على ذراع النحيل كما يبدو. سمعته يقول لجاره:

ـ هل يعقل أن يتحمل الحمام الطلقات ويبقى في رأس النخل؟ عجيب!

ضحك زميله. سمعته يعلّق:

ـ ربما فرخ. في القمة يبقى العش، ولكن الحمام يطير.

ثم ضحك، ولا تعرف لضحكته سبباً. إذن، أين الخطأ؟ الخطأ في رجفة أخرى. الرجفة الأولى. خفقة القلب البكر والتعلّق بالقرين. لو لم تعشق لما ارتبطت بقرين وارتكبت الحماقة. نعم، في هذه النزوة يكمن سرّ الشقاء كله. تعلقت، فباضت، فقست بيضة العشق عن الثمار. عن الخطيئة. عن الفرخ. الفرخ الذي يملك قلبها ويشدّها الآن إلى الشجرة، فتبرك راجفة بين الأشواك والليف تحت رحمة الخطر. تحت رحمة الطقطقات والطخطخات والدمدمات. دمدمات وحشية لم تسمع بمثلها قبل اليوم. روت لها جدتها عن هذا الدوي أساطير عقب عودتها من هجرة موسمية شقية إلى الشمال البعيد، ولكنها لم تظن أبداً أن أساطير العجائز يمكن أن تصبح حالاً واقعاً.. و...

www.ibtesama.com

- بووم!

اهتزت النخلة، تزلزلت الأرض. احترقت السماء والشظايا وسحب الغبار والدخان. كادت الواحة البائسة أن تختفي. ومن فرط رعبها انشلّت هذه المرة. عجز جناحاها عن الرفرفة. فتكوّمت، وتكوّرت حول نفسها حتى كادت أن تختفي أيضاً. صَوصو الفرخ في أحشائها وتحولا، معاً، إلى كتلة واحدة، صغيرة، راجفة، من الريش. تحت الريش ساح سائل، وغمر البدن بالنداوة والبلل. من عينيها أيضاً فزّ البلل. بلل حار وأليم. تحول قلبها إلى جمرة تتجوّل في صدرها وتلعن الذكور. يظل الذكر يحوم حول الأنثى حتى يوقعها ثم يتركها مع الفراخ في العش ويهرب. يهاجر وراء أول أنثى ويدعها وحدها مع الفراخ والخطر. لعن الله الذكر.

في الأسفل، عند الجذع، بصق البدين لعاباً ممزوجاً بذرّات الرّمل، وخاطب رفيقه:

- أخبرت الزّعيم بسلوك هذا الغول!

النّحيل لم يجب. انشغل بإزالة الرّمل عن البندقية، ثم شحنها بأصابع الرصاص. أضاف البدين:

- فوهته في سعة فم التنّور، طلقته تولول طويلاً قبل أن تسقط. ثم، ثم تزأر كالسّبع عندما تنفجر.

أنصت للمناوشات بعيارات البنادق في الجهة الغربية، القريبة من أحراش السّواقي. علّق النحيل فجأة:

www.ibtesama.com

- مسكين الحمام. يرمي بالفضلات وهو معتصم برأس النخلة. لن يتمسّك بالبقاء في النخلة لولا وجود العش. مسكين الحمام.

ولكن الرفيق مسح العرق عن وجهه بطرف لثامه. وواصل حديثه عن سلوك «الغول»:

- يخرج من هذا الوحش القبيح بدن يكفي لحرق غابة. رأيته عندما هاجمونا في مدن الشمال، عند بداية الغزو، يحرق مزرعة كاملة. ألم تر النّار كيف اشتعلت هناك في الأحراش، منذ قليل؟

هَمْهَمَ النحيل بكلام مهموس مثل أغنيّة شجينة مكتومة من النّوع الذي يخاطب به المهاجر الملكوت القائم خلف الأفق الخفي عندما يكون وحيداً في الصحراء. أنصت البدين للنّشيد فلمعت عيناه بالبلل والوميض. قال بصوت كسول:

- قلت للزعيم أنهم لن يدعونا نصل إليهم. سيرموننا بحمم التنّور من أبعد مسافة كما فعلوا معنا في الشّمال، ولكنه لم يأخذ بتدبيري، لأن المثل يقول: ليس من رأى كمن سمع.

هيمن صمت متوتر، كئيب، محفوف بالانتظار. ازداد البريق في عيني البدين، أفلتت من مقلته اليمنى حبة نقيّة كقطرة مطر ثم قال بصوت مخنوق:

- إنهم جبناء!

www.ibtesama.com

في تلك اللحظة انطلق العويل المكتوم، المشبوه، المتوعّد، الغدّار، قبل أن تسقط القذيفة عند حضيض النخلة.

قبل أن تفيق تماماً من الدوي سمعت صوتاً طائراً في الهواء. أدركت، في غمضة، أن هذا الصوت الكئيب، الموحش، الخفي، كان قد سبق الانفجارين السابقين، فازدادت تضاؤلاً والتحاماً بالوليد، حتى أصبحا قطعة واحدة. وبرغم هذا الالتحام إلا أن قوة الدمدمة هذه المرة أجبرتها أن تنفصل، في لحظة مشحونة، خاطفة، عن الطرف الآخر، عن جزئها، عن نفسها، وتطير إلى أعلى بدون إرادة أو وعي. فردت جناحيها تلقائياً، وبرغم أنها لم ترتفع، فوق العش، سوى شبر أو، ربما، عقلة إصبع، إلا أنها لم تجد العش، عندما عادت وأرادت أن تنزل فوق الوليد.

ماذا حدث؟ لم تنتبه، هذه المرة، للدوي، لم يفزعها عنف الانفجار، لم يتدحرج قلبها إلى أحشائها، لأنّ الشظية سلخت قلبها من جسدها وأخذته، مع العش، إلى المجهول. تفقّدت الفروة بنظرة واحدة، شاملة، ولكنها كافية لترى الفاجعة. لا أثر للفرخ. ضمت جناحيها إلى صدرها ونزلت على رأسها، نحو الأرض، وسط عاصفة الغبار التي خلّفها الانفجار. كان الرجل البدين ممداً على الرملة، بجوار الجذع، وقد غطاه الغبار والدم وأشلاء العش. فوق صدره رقد فرخ صغير، أخضر، مكسو بزغب ذهبي. بمنقار مفتوح كأنه يطرح سؤالاً. في رقبته نز خيط صغير من الدم.

www.ibtesama.com

ظلت ترفرف فوق الجثمان الممدد بجنون من فقد عقله أيضاً.

زحف النحيل نحو رفيقه. تفحصه لحظات، ثم أسبل له جفنيه وسحب على وجهه اللثام. حام حوله وحامت هي فوقهما. جرّه من رجليه ويمّمه شطر القبلة. ولكنه لم يقترب من الفرخ.

رفرفت فوقهما بيأس وجنون.

ثم..

ثم عاد الصوت المخيف. الخفي، الوحشي، الذي سبق الدوي. وقبل أن تتدبر الخطر هوى جسم ودوى انفجار. اختفى الجثمان مع الفرخ، وطار إلى أعلى الرجل النحيل. في نفس اللحظة كان الطائر، المرفرف في الجو، يهوي إلى أسفل، ليلتقي مع الإنسان الطالع، في برزخ غامض، بين السماء والأرض.

www.ibtesama.com

مسلك الشراب

www.ibtesama.com

منتدى مجلة الإبتسامة
www.ibtesama.com
مايا شوقي

www.ibtesama.com

القيلولة.

امتدت. تمددت. تمادت في الامتداد. تواصلت في الأفق. لم يعد ثمة أفق، فتواصلت في الفراغ المفضأ الممسوح بزرقة خفيفة، فاجعة. فتدفق فوقها سائل بحري، شيطاني، فاكتسبت الدائرة لون السماء الكامل. وحّدها الامتداد، فناء التواصل المفاجىء، بالشطر الآخر، بالقرين الفحل، الذي يسحقها منذ الأزل بجسده الوثني الأزرق، لتعانقه، محمومةً، وتلتحم بالنصف الأعلى. وجدت نفسها تكتسب لون المعشوق، وطيشه، وقساوته، التي لا تبلغ الذروة إلا مع حلول القيلولة. مد اللعين الآخر، القواد، المدعو سراباً، لسانه، لسان السخرية والقدر والألعاب، كاشفاً عن نوايا خفية للاستدراج والاستدعاء والإغواء. إغواء التائهين البلهاء إلى صراط الفناء. في ذلك اليوم أصبحت حتى الواحات التي اخترعها السراب وبناها في الأفق مصيدةً للعابرين، أتقن الثعلب القديم إنجازها زيادةً في الاحتياط وإمعاناً في اتقان الفخ. فخ اللامكان، المجهول، حيث لا ظل، ولا واحة، ولا نجاة.

www.ibtesama.com

تموج بالبريق وتغنج. صعد المروج المكشوفة ونزل الوديان الفارغة ليملأها بالزئبق ويسقيها بسيوله الفضية اللئيمة، فإذا تقاعس العطشان، أو تجاسر التائه على الإبطاء في الاقتفاء، توقف عند الرابية وانتظر. يغمز بعين ويغري بالتسكع جيئةً وذهاباً كمتمنعة راغبة، مجدداً دعوته، حاثاً ضحيته على الاستجابة للنداء الأنثوي.

تتمادى الشمس المكابرة، وتتجبر أيضاً. تضاعف من جهودها في حرق الأحياء والأموات: يشتعل النبات الميت، يستغيث الشجر اليابس، وتصرخ الحجارة، وتتوسل الرحمة المستحيلة، فلا يزيد التوسل الكوكب المتوحش إلا استفزازاً، فتتضاعف شحنة العذاب انتقاماً وإرهاباً.

القيلولة.

اعتصما بسدرة وحيدة في العدم. استند طويل القامة، نحيل البنية، إلى جذعها شمالاً، واستند القصير، الممتلىء، إلى الساق جنوباً. مدا أرجلهما غير آبهين بمسامير الشوك، تعلقا بالأفق القاسي، المغمور بفيض المخادع الخالد، ثم طفقا يلهثان.

أخيراً تكلم البدين:

- قلت لك منذ البداية أن الخروج عن طريق «دنبابة» مجازفة. من خرج من الطريق المرسوم اقترف حماقةً وسلم أمره للمخادع الشيطان. هذه شريعة الصحراء منذ الأزل.

قال النحيل بسذاجة طفولية:

- لا يؤدي إلى «عوينة ونين» طريق «دنبابة» وحده. أردت أن

www.ibtesama.com

نصل إليها من الأرض الشمالية المجهولة. ألا تحن للصحارى المجهولة؟

عاد البدين:

- من اختار الحياة في الصحراء عليه أن يلتزم بشريعتها. هذا ما يقوله الشيوخ أيضاً.

فعاند النحيل بنفس الطفولة:

- لم أختر الحياة في الصحراء.
- لم تخترك هي أيضاً.
- إذا لم أخترها ولم تخترني فكيف الخروج من الورطة؟ ماذا يقول الشيوخ في هذه الخصومة؟

أطلق هسيساً مكبوتاً. ضحكةً صبيانية خبيثةً، فقال البدين:

- لا حل للخصومات إلا بالتنازل من الطرفين. ألم نتعلم هذا من الخصومات القبلية؟ ولكن الخروج من الطريق الذي رسمته القوافل يبقى خيانةً للعهد القديم.

سرح النحيل مع حيل المخادع الخالد في الأفق. تكلم فحلت التعاسة محل الطفولة في نبرته:

- ولكن ماذا أفعل بالمجهول الذي ينادي؟ بالسر الذي لا يريد أن يتوقف عن استدعائي واستهوائي؟ ماذا تساوي الصحراء إذا لم نستجب لدعوتها ونذهب، مع السراب، للوقوف على المسافات الخفية؟ والمعشوقة لن تستجيب، الصحراء ترفض

www.ibtesama.com

أن تتعرى بدون نذور. المجهول لا يزيح القناع بدون خروج من الطريق الذي رسمته القوافل.

عم السكون. أقبل الذباب. ذبابتان. مرسلتان من المجهول. من أين يأتي الذباب في الصحراء؟ ينزل ضيفاً على المسافر بمجرد أن يحط في المكان كأنه يتولد من الفناء.

قال البدين:

- أتفق معك في شيء واحد: الطريق المرسوم دائماً مستباح ولا خير فيه. يهرب من أمامه العشب ويختفي الترفاس. الترفاس يهرب من كل المساحات التي تعبرها القوافل. فهل الإنسان مخيف إلى هذا الحد؟

سكت مهلة ثم استدرك:

- أفهم عندما يتعلق الأمر بالغزلان والودان، ولكن أن يفر من وجهه حتى العشب والترفاس فهذا محير بعض الشيء. أم أنك ترى رأياً آخر؟

لم يجب النحيل فأكمل البدين:

- ومع ذلك فإن ثمن الخروج أقسى. وها نحن نبدأ في دفع الثمن.

عقب النحيل ساخراً:

- وهل توقفنا عن دفع الثمن منذ زحفنا ونطقنا وعرفنا؟ سنظل ندفع خرجنا أم لم نخرج.

www.ibtesama.com

- ولكن الدفع بالتقسيط أهون. أيسر من أن تجبر على دفع كل شيء مرة واحدةً.

تمتم النحيل:

- ربما كان ذلك أريح...

اعترض البدين:

- العطش قاهر. دفع الثمن بالعطش وحشي، حيواني، مثل الانتحار.

قال النحيل وهو ينهض واقفاً:

- تبقى البركة في الحركة. الأرض المجهولة لا تحب السكون.

اعترض البدين ببرود:

- ها أنت تخطىء مرةً أخرى. وصية الشيوخ للتائه أن يلزم السكون. نجاته في البقاء بالمكان.

- هل تصلح وصايا الشيوخ لكل زمان ومكان؟

البدين تجاهل السؤال اللئيم وقدم إيضاحه الخاص:

- الحركة للتائه تسكع ميؤوس. يصرف الجهد ويستنزف الماء المخزون. هذا لا يجهله حتى الأطفال.

قال النحيل وهو يتهيأ لمواصلة السفر:

- هذا يصلح لمن نفد منه الماء وهو يسير في الطريق المرسوم، ولكنه حكم بالموت بالنسبة لمن جازف بالخروج. علينا أن نتولى أمرنا بأنفسنا لأن السابلة لا يعبرون الصحراء المجهولة

www.ibtesama.com

إلا إذا كانوا ضالين مثلنا. ونحن لن نتحمل الأمر إذا لم نتحرك. هيا بنا!

اعترض البدين بتوسل:

- انتظر. هناك سر آخر لا بد من بحثه أولاً. هل نسيت أننا في قبضة المخادع الأبدي؟ سيلعب بنا. هذه فرصته. يروق له أن يستغل هذه المآزق أبشع استغلال. إنه غدار!

تهكم النحيل:

- وهل سيكون أغدر من أي شيء آخر؟ إذا لم يقم هو بتولي «هذا» الأمر فسينوجد من يستعير دوره لتنفيذ المشيئة.
- أنت تملك الجواب لكل سؤال. أعترف الآن أن هذا ما كان يتعبني فيك منذ الطفولة. هذا لا يليق.
- ألا ترى أن من المتأخر الآن أن أغير من نفسي؟
- لم لا؟ الشيوخ يجزمون أن تغيير الطبع هو الأمر الوحيد الذي لا يفوت أوانه.
- ومع ذلك يبقى أصعب من المرور تحت رقبة الجمل في غفلة منه!

تفقد النحيل الأفق. وجده يعوم في سيول المخادع. تجمد الهواء. اقترب كوكب النار أشباراً أخرى من الجسد الصحراوي العاري. طنطن الصمت بمواله الحزين. سأل بروح الطفولة:

- هل نذهب؟

www.ibtesama.com

أجاب البدين بروح طفولية أيضاً:

ـ في مثل هذه الأحوال كنا نحتكم إلى القرعة في الطفولة.

وافقه النحيل وهو يجلس على رؤوس أصابعه:

ـ نعم. القرعة. التفت إلى الوراء.

ولّى البدين وجهه صوب الجذع. تناول النحيل عوداً يابساً من السدر. كسره إلى نصفين غير متساويين. بسطهما في كفه وصاح برفيقه أن يلتفت ويختار. تأملهما البدين لحظةً، تفحص زميله بنظرة شك قبل أن يضع يده على العود الأطول. تبادلا نظرةً صامتةً، ثم أوضح النحيل بحزن:

ـ الآلهة وقفت في صفك. كسبت الجولة الأولى. أمامنا ثلاث جولات.

جاء دور النحيل كي يشيح بوجهه. وعندما أذن له الرفيق اختار نفس العود. ابتسم البدين وأعلن:

ـ واحدة بواحدة. الآلهة لا تتخلى عنك أيضاً.

استمرت القرعة.

انتهت بالتعادل.

راقبا حركة المخادع في الأفق. يتموج ويتغنج. يقترب ويهرب. يتلوى ويطلع لسانه. اقترح النحيل وهو ما يزال يقف فوق رأس البدين:

ـ لم يبق أمامنا إلا المصارعة.

www.ibtesama.com

هتف البدين باستنكار:

ـ لا!

قال النحيل ببرود:

ـ كنا نفعل ذلك في الطفولة أيضاً عندما نتعادل في القرعة.

اعترض البدين:

ـ انتظر. كنا نفعل ذلك حقاً ولكن ليس في مثل هذا الموقف. هل تقدر كم علينا أن نستنزف من ماء؟

ـ لا أرى طريقاً آخر.

ـ لا!

سكت النحيل. أحكم لثامه حول وجهه. قال:

ـ سأذهب.

لم يجب البدين. أخفى عينيه وراء اللثام وارتفع صدره بتنهيدة عميقة. ردد النحيل:

ـ لم يبق لي إلا أن أذهب وحدي.

طنت ذبابة. نفس الذبابة التي منّ بها الفناء.

تحرك النحيل. مشى متباطئاً، يدحرج الحجارة بنعله القديم، مطأطئاً. توقف فجأة. التفت وراءه. ظل الرفيق يسند رأسه إلى ساق الشجرة ساكناً، يسدل قناعه على عينيه. تردد لحظات. ثم التفت ومشى وراء السراب بخطوات واسعة. ولا يدري كم مضى من الزمن، ولا أي مسافة قطع عندما سمع النداء:

www.ibtesama.com

ـ هيـ ـ يـ ـ يه. ارجع. قبلت المبارزة. هل ظننت أننا نستطيع أن نفترق بسهولة؟

تقابلا في منتصف الطريق. قال النحيل:

ـ نعم. نحن لم نفترق منذ الطفولة.

فاحتج البدين:

ـ ولكن لا تظن أني تنازلت عن البقاء. ما زلت أظن أن النجاة في السكون.

ابتسم النحيل ولم يعقب.

عادا إلى السدرة معاً. فكر البدين بصوت مسموع:

ـ ربما كان من الأفضل أن نرجىء المصارعة حتى العشية.

اعترض النحيل:

ـ وهل للظمآن عشية؟ هل يطيق العطشان انتظاراً؟

شمرا على ساعديهما. تشابكا. التحما. بدأ العراك. استمر طويلاً. نزف منهما عرق غزير. أغلى عرق نزف منهما طوال حياتهما المشتركة. قطرة منه أنفس من قطرة الدم. ولكن الصراع، المجازفة الثانية بعد مجازفة الخروج من طريق القوافل، لم تسفر إلا عن تعادل. لم يستطع أي منهما أن يلقي الآخر أرضاً.

انطرحا تحت السدرة يلهثان، يحاولان أن يستدعيا اللعاب الهارب مع حبات العرق النفيس. اشتكى البدين:

ـ قلبي جف. بدأ يتيبس. قلت لك أن النزال في وضعنا انتحار.

www.ibtesama.com

قال النحيل بقساوة:

ـ القدر هو الذي أراد لنا أن نفترق. لا فائدة من اعتراض المصير.

البدين لم يجب. تابعا أنفاسهما المتتابعة. عاد النحيل:

ـ لماذا تستنكر الفراق؟ الفراق ينتظر كل الناس. وكوننا لم نفترق في الماضي فهذا لا يعني أننا لن نفترق أبداً.

استمرا ينزفان سائلاً أغلى من الدم. سائل النداوة والحياة.

نطق البدين ببشارة:

ـ يخيل لي أن ميزان النهار قد اختل، ونسمة بحرية ستهب من الشمال.

ولكن النحيل أجهز على البشارة بمرثية:

ـ لا يكون الصحراوي صحراوياً إذا لم يتعرض لخطر الموت عطشاً.

أراد البدين أن يواجه المرثية فغنى. روض لحناً شجنياً ولكن لنبرة طغت عليها الكآبة فأخفق في إنقاذ الموقف.

نهض النحيل. قال بروح الطفولة:

ـ سأذهب.

لم يجبه البدين. لم يغير من وضع الاستلقاء. تابع الفراغ.

تحرك النحيل.

قطع مسافةً. توقف. التفت. صاح:

www.ibtesama.com

ـ هل قال الشيوخ أن السراب مخادع؟ أنا أقول أنه يلهو. يلعب. يستهوي، لأنه يعشق الدعابة. غنجه يخفي وعداً، ووراء قناعه اللماع يوجد دائماً أمل. لهوه بريء، صدقني!

لم يستجب البدين للنداء. استمر يراقب الفراغ، مستلقياً في ظل السدرة.

عاد يصيح:

ـ الدرويش يقول إن لون الماء من لون الإناء، فلماذا لا نفترض حسن النية ونسلم بأن لونه من لون الماء بدل رجمه بالتهم والألقاب؟

ضاع النداء الثاني في سكون الصحراء. تقدم نحو الشجرة خطوتان وقال بصوت مكسور:

ـ ألن ترافقني؟

صمت.

ـ هل نفترق حقاً؟

مع كل صيحة يزداد الصمت طغياناً وسلطاناً وجلالاً.

يئس. التفت إلى الوراء وتحرك في الاتجاه المعاكس.

تابعه البدين حتى تسلمه المخادع. لعب به وقتاً، رفعه ثم حطه، مزقه وفصل رأسه عن كتفيه. جزأه إلى قطع شفافة، رهيفة، خيالية، قبل أن يبتلعه ويخفيه في حدود المجهول، في حدوده السرية. فأين رفيق السفر؟ أين صديق الطفولة؟ ماذا ستفعل يا مخادع، يا صانع المكيدة، بجسم لم يحمل إلا الطفولة، ولم يحلم إلا بالأسفار

www.ibtesama.com

والأشعار؟ هل تجرؤ، يا متآمر، يا أناني، أن تنتزعه، وتتحايل، كي تأخذه إلى الأبد؟ في الطرف الآخر؛ وراء الأفق، بدأ الآخر، المعاند الذي لم يتوقف يوماً، ولم تتوقف طفولته الأزلية عن تحريضه للمضي إلى الأمام، فشاء، في ذلك اليوم، أيضاً، أن ينفذ وصيتها القديمة، ويمضي إلى الأمام. يطارد المخادع، يفتش عن سر وراءه. يطلب القمر خلف الساهور. يبحث عن النار تحت ستار الدخان. الماء وراء سحابة البخار. وإلا من أين لهذه الغلالة السحرية أن تأتي إذا لم يتخبأ في مكان ما، خلفها، غدير كبير تخلف من سيل موسمي، أو تجمع إثر مطرة غزيرة من سحب عابرة؟ كيف تستطيع النار أن تتشبه بنقيضها الماء؟ كيف تسمح الصحراء أن تلعب القوى الخفية بشرعها وتقلب نظامها وتسن لها منطقاً دخيلاً، غريباً؟ كيف تجيز هذا المسلك اللئيم الذي يهدد بالخلل وقلب كل الموازين؟

أين حكمتك يا صحراءنا العجوز؟

ولكن من قال إن هذا السلوك شذوذ؟ من يجزم أنه عدوان وتخريب لطبيعة الصحراء؟ ألا يمكن أن يكون دعوةً؟ ألا يقول المستهتر: تعال، اتبعني وسوف أقودك إلى الغدير، أو البئر؟ ألا يكون مسخراً بدوره من العجوز لتنفيذ مشيئة أخرى، مناقضة؟ ألا يفصح مسلكه عن تحريض على الذهاب إلى الأمام؟ ألا يبشر أنصار البقاء والاسترخاء بالقصاص والفاجعة؟ أي سر في تلاعب اللعوب؟ لماذا لا تريد أن تخبرني، يا صعلوك، أين خبأت الماء؟ أين خبأت الماء؟ أين؟

تتبعه حتى المساء.

www.ibtesama.com

ملاحقة اليوم الأول لم تسفر عن الفوز.

قطع مسافةً ليلاً، وتابع المشوار في اليوم التالي. كان يترصده، يناغيه، يناجيه، مثل مدلّه مسلوب يلاحق المعشوقة اللعوب التي تتملص وتتخلص وتتحول، مبتعدةً، مع كل نداء.

ثم بدأ ينهار ويفقد التوازن. ترنح وتبدت الأشياء في العتمة. حتى السراب احتجب وكف عن اللعب. ولكن القبلي تراجع وتغير مسار الريح.

ولو لم يهب البحري من الشمال لسقط. تحامل وواصل. صعد الرابية مستعيناً بيديه. هجع في غيبوبته. ما لبث أن غفا من الغيبوبة، وربما من الحلم، رأى نفسه ينهل من غدير فضي، بلون السراب، فلا يرتوي. بل كلما شرب أكثر كلما اشتد به الظمأ. ولكنه لم يتوقف عن الشرب. استيقظ مع بروز الشعاعات الأولى، ولكن النهار لم يبشر بالصهد. استطاع البحري أن ينعش الخلاء.

ولكن ذلك لم يمنع قلبه من التحجر، كما لم يبلل له ريقاً. ظل هامداً، مجهداً، مهلهلاً. في النهاية فتح عينيه. فتحهما على الجانب الآخر، المجهول، من الرابية الجبلية. فعاد وأغمضهما. يقيناً أن الحلم يتواصل. الغيبوبة مستمرة. دعكهما بيديه. وانتزع جسده من الحجارة. كانت البحيرة تستلقي في الحضيض، أسفل الرابية، يلعب النسيم الشمالي الرحيم بصفحة مائها الذي تعتم وتكدر أثناء الجريان، فتراقص بمرح تحت الشعاعات البكر. فهم في لحظة سر البحري. أدرك أن النسيم كان الإشارة التي جاءت بخبر أمطار هطلت

www.ibtesama.com

في الجبال الزرق فجرى الماء وجاءت السيول لتصنع له المفاجأة. الغدير. النجاة. نزل المنحدر. سقط. تدحرج. سلخته الحجارة واقتطعت لحماً من بدنه. ولكنه لم يحس. لم يع. لم يعقل. حتى دس رأسه في المستنقع البشوش. مستنقع الحياة.

حمد الآلهة وشكر السراب. وفى بالوعد، وأهداه الغدير.

ولكنه ما لبث أن فهم أن الفوز لم يكن كاملاً. نسي الزمزمية عند الشجرة فاستحال عليه التزود بالماء. ظل أسيراً بجوار المستنقع. يرابط حول الغدير ويدور كوحش محبوس، في حين تتمدد حوله صحراء إلى كل الجهات، وتمتد بلا نهاية.

فهل هي مكيدة أخرى من مكائده الشريرة؟

في قيلولة اليوم التالي راقبه، عبر المدى، وهو يتغامز ويتلامز ويطلع له لساناً ساخراً.

الدار البيضاء

1991 /2 /28

www.ibtesama.com

الطريق إلى «واو»

www.ibtesama.com

منتدى مجلة الإبتسامة
www.ibtesama.com
مايا شوقي

www.ibtesama.com

- 1 -

أخيراً ظهر.

ظهر بعد أن يئس أهل الصّحراء من ظهوره.

ويستطيع الحكماء والمعمّرون وحدهم، الذين ورثوا الانتظار عن أسلافهم، أن يقدّروا مدى الخسارة التي تكبدتها القبيلة بسبب غيابه وعزوفه عن الظهور كل هذا الزمان. فيروى أن الوليد الصحراوي يتلقى الوصية وهو يتقلّب في القماط، ويرث الوعد مع الهدهدات في حضن الأم، فيكبر مجبولاً على الانتظار والأمل. يتدفق الزمان كما تتدفق ألسنة السراب في الخلاء، ويجد الرّضيع نفسه يقف على الرابية، يجري في العراء، ويتفقّد الجديان. في المراعي يخلو الصّبي إلى نفسه، يتوقف عن التلهي، يشاهد السماء النقية وهي تقترب من بدن الصحراء لحظة الغروب. تنزل الظلمات فيلتحم العشيقان في عناق محموم لا تفضحه إلا عناقيد النجوم وهي تتغامز وتومىء بإشارات ذات معنى! يرتجف قلب الصبي ويستيقظ في جوفه نداء

www.ibtesama.com

الأسلاف. يعتلي الرابية ويتفقد الأفق علّه يفوز برؤية القادم المنتظر. رسول الحنين الذي سيأخذ القبيلة إلى الوطن السري في «واو». ولكن الضّب العجوز يعتلي أيضاً المرداة[1] كأنه يصلي. والحكماء وحدهم يعرفون أن الضّب لا يخرج من جُحره إلا ليسخر من سلالة الصحراوي الذي يجد في نفسه الجرأة ويطمع في الخلاص على يدي رسول الحنين المجهول.

- 2 -

ولكن الطموح في الخلاص، وانتظار الرسول الموعود لا ينتهي عند الطفولة، ولا يتوقف مع تراجع الطيش أو الصبينة، بل يشتد ويستعر مع تدفق الزمان الصحراوي. لأن للوصايا الموروثة عن الأسلاف خاصية خاصة تجعل الحلم يكبر، والشّوق يشتعل، حتى يصبح الانتظار عبادة، وتفقّد الرسول المجهول، وتسقّط أخباره، عادة. تقيم الصبايا على شرفه حفلات الاستحضار، وتدبج شاعرات القبيلة الموهوبات قصائد العشق والاستدعاء، ويرقص الفتيان في الأمسيات لهفة للقائه. بل ويقع حتى الرجال المجلّلون بالوقار في الوجد كي يخففوا في قلوبهم شعلة الحنين إلى حقيقة أكدت الأساطير أنها ستأتي، ولكنها لم تأت. استمرت طقوس الشوق والانتظار زمناً لا يعرف أحد في قبيلة الصحراء متى بدأ، ولم يتوقع أحد أن تتحقق المعجزة ويتحقق الانتصار.

---

(1) المرداة: الحجر الذي ينصبه الضّب علامة على جُحْره.

www.ibtesama.com

- 3 -

خلال هذا العمر الذي قطعه الزمان الصحراوي في تدفقه تغيّرت الصورة، وأضيفت أشياء كثيرة للأسطورة، حتى أن هيئة القادم المجهول، عندما جاء أخيراً، أصابت الكثيرين، إن لم يكن الجميع، بخيبة أمل. لم يصل الأمر إلى المجاهرة بالخيبة، ولكن ليس صعباً على الخبراء بنفوس أهل الصحراء أن يقرأوا في عيونهم الدهشة الطفولية التي فاضت بها عيونهم عندما وجدوا أن رسول الخلاص، الذي انتظروه زمناً سحيقاً بدأ مع الخلق نفسه، ليس طيباً في الملامح، ولا يتمتع بأية مواهب تميّزه عن باقي المخلوقات الصحراوية البائسة. بل إنه في المظهر يشبه الرعاة، وفي الملامح القليلة التي تسمح العمامة بالكشف عنها، يبدو صارماً مثل الفقهاء. (هل قلت الفقهاء؟ الواقع أني تسامحت قليلاً، لأنني لم أشأ أن أتطرف فأقول أن تجهمه يماثل الوجوم الخالد المطبوع على وجوه مريدي الطريقة القادرية الذين آلوا على أنفسهم ألاّ يكفّوا عن التحديق في الآخرة). الرسول أيضاً بدا وكأنه يحدّق في الآخرة، ولا يرى مخلوقاً واحداً من كل الحشد الذي تجمع احتفالاً بحلوله. ظلّ متجهماً، حزيناً، متعلقاً بالأفق البعيد وهو يجلس، بجلال، على ظهر حمارته البيضاء.

كان الصبيان أول من هرع لاستقباله. مالت الشمس الوحشية إلى المغيب، وتنفّست الصحراء فرحاً بالخلاص. أحاطت به فرق الصبية فرمى لهم بالحلوى، ولكنه لم يتنازل عن كبريائه، أو وجومه، أو تعلّقه بالأفق. كان يرتدي لباساً ناصعاً. مقنّع بعمامة بيضاء تكشف

www.ibtesama.com

عن وجنتين مهيبتين، بارزتين، وأنف كبير، معقوف، ملوّح بالشمس والسّفر الطويل. فوق اللثام تكوّمت عباءة ناصعة أيضاً. ويبدو أن الشيء الوحيد الذي لم ينله السّفر هو اللباس. وقد لاحظ العقلاء أنهم لم يروا أثراً لذرّة غبار على ثيابه، وجاهروا بالأعجوبة وقالوا إنها برهان آخر على أنه الرسول الإلٰهي المنتظر. ولو لم يكن سماوياً لما أفلت من عبث القبلي وغبار الصحراء.

بدأت مسيرة جديدة. شهدت المسيرة أول شجار. تنابز صبيّان وتشاجرا بسبب قطعة حلوى. قال الأول، وهو فتى رفيع البُنْيَة، طويل القامة، مشطور الرأس بشريط من الشّعر كعرف الدّيك:

ـ جدّي الضّب يقول إن وانتهيط[1] لن يقودنا إلى الوليمة.

قال الثاني، وهو فتى أكثر بدانة، أقصر قامة، وشعره مصفف في الجهة اليمنى وحدها، وهي طريقة ابتدعها الرعاة وخصّوا بها الجدعان المصابة بالجرب:

ـ وجدّي الودّان يقول إنه سيعيدنا إلى «واو».

ضحك الأول وعلّق ساخراً:

ـ هذا شرك. الودّان يقع دائماً في الشرك. ولكن لا أحد ينفي أن الضبّ أحكم المخلوقات الصحراوية. هل تنفي أن الضّب حكيم؟

---

(1) وانتهيط: صاحب الأتان (تماهق).

www.ibtesama.com

- لا أنفي أنه حكيم، ولكنك ستضطر لأن تعترف أيضاً أن الودّان وديع.
- ولكن وانتهيط لن يقودنا إلى الوليمة في كل الأحوال.
- بل سيتحقق الوعد ونتخلّص من الظمأ والأسفار والجوع. سنسافر مرة واحدة إلى «واو» وسنبقى هناك إلى الأبد. سننعم بالوليمة.

قهقه الرّفيع مرة أخرى، ثم أكّد:

- لن يكون هناك وليمة. لن نبلغ «واو» أبداً. جدّنا الضّب يقول إن الطريق إليها مقطوع.
- إخرس!

عندما لاحظ الرفيع انفعال البدين ليّن من لهجته وقال بإشفاق:

- أنا لم أقل إلا ما قاله العجوز!

فاضت من مقلة البدين دمعة. مسحها وخاطب رفيقه:

- عجوزك الضّب يقول هذا لأنه يروّج لعقيدة الحقد واليأس. الودّان يقول إن كل من اختار العزلة فهو حاقد.
- أن تختار العزلة أهون من أن تقع في الشرك.
- الصحراء كلها شرك.
- ها أنت تعترف بأن الصحراء شرك. أراهن بقطعة حلوى أن جدّك الودّان هو الذي قال ذلك. وإذا اتفقنا مع عجوزك أن

www.ibtesama.com

الصحراء شرك فهذا يبرر العزلة ما دام الطريق إلى «واو» مقطوع.

- إخرس!

- لا أمل في الوصول إلى واو، ووانتهيط لن يقودنا إلى الوليمة.

- إخرس!

بكى البدين بصوت عالٍ، وهرع وراء الموكب.

- 4 -

اقترب الموكب من المضارب فخرجت إليه النساء. رفعن أيديهن إلى أفواههن وولولن بالزغاريد. كافأهن الضيف في الحال ورمى لهن بالحلي الذهبية. تلألأت قطع المعدن اللعوب وتناثرت على الأرض الحمراء فقاتلت كل امرأة بالأظافر للاستيلاء على حصتها. في المؤخرة سارت امرأتان فاتنتان. الأولى نبيلة بيضاء والثانية خلاسية ماردة. اشتكت النبيلة من مسلك القبيلة واغتابت أخريات بالاسم وهي تنتقد جشعهن ووحشيتهن في انتزاع نصيبهن من الذهب. ثم ختمت نميمتها:

- يتصرفن كنساء العبيد. تصرّفهن يشكك في كنز الوليمة.

علّقت الخلاسية:

- الكثيرون يشككون في أمر الوليمة. أنا نفسي أشك.

- هل أنت من سلالة الضّب؟

www.ibtesama.com

- لا أدري. ولكن جدتي تلمح إلى أن جدي من أمي ينتمي إلى عشيرة الضّب. ولكن شكّي لا علاقة له بالسّلالة. صدّقيني.
- لا يشكك في المسيرة إلا من انتمى لهذه العشيرة. أنت لا تعرفين ماذا يعني ألا نبلغ واو.
- جدّتي تؤكّد أن الطريق إليها مقطوع.
- ها أنت تقدّمين الدليل على الانتماء. ما أقسى الضّب! ألا يستطيع أن يكف عن ملاحقتنا ويدع لنا أملنا حتى لو كان وهماً؟

راقبت الخلاسية امرأتان تتقاتلان بشراسة وتتنازعان سواراً ذهبيّاً كبيراً. قالت:

- سّره في قساوته. خلوده في العزلة جرّده من أساليب التحايل وأنساه حاجة أهل الصحراء إلى العزاء. هذا ما يجعله يجهر بعدائه للرحلة فيقول إن وانتهيط أكذوبة، والوليمة شرك، والطريق الموعود إلى «واو» شرك.

قالت النبيلة بيأس:

- ولكن الصحراوي يحتاج إلى بعض الكذب، إلى قليل من الوهم. تخيّلي الصحراء بدون أمل في الوصول إلى واو! تخيلي الصحراء بدون انتظار للوليمة والخلاص! هل تطاق الصحراء بدون أحلام الصحراء؟
- الحق أن الصحراء لا تطاق بدون أحلام الصحراء.

www.ibtesama.com

ـ فوق بساط الوليمة سننال كل ما نشاء من مصنوعات الذّهب.

ـ الضّب يشكك في هذا أيضاً.

نهرتها النبيلة بغضب:

ـ ألم نتفق بأن ننسى شكوك هذا الشيطان الذي يسكن الظلمات؟

ـ إنه يحذرنا من الخدعة، ومن الوقوع في الشرك.

ـ حقّاً أن العرق دسّاس. من قال لك أني أريد أن أنجو من الخدعة؟ من قال لك أني أنوي أن أتجنّب الشرك؟

بصقت النبيلة على الأرض غاضبة، ثم أسرعت الخطو والتحقت بالرّكب.

ـ 5 ـ

انضمّ الرجال أيضاً إلى الموكب، فألقى لهم بالدمية التي تناسب مقام الرجال: السيوف!

سار في الوراء رجلان. بحثا عن تسلية في حوار. قال الأطول قامة:

ـ لن تكتمل رجولة الرّجل إلا بالسّيف. لن ينتزع النبيل البطولة بدون سيف.

قال الأقصر قامة بلغة غامضة:

ـ يوجد في الصحراء من وجد في نفسه الكفاءة لأن يسخر من السيف ومن البطولة نفسها.

www.ibtesama.com

واصل الأول موّاله عن البطولة والرجولة:

- لا رجولة بدون نبل، ولا نبل بدون بطولة، ولا بطولة بدون سيف. لا يشكك في هذا الرباط إلا العبيد والجبناء.

فعاد الثاني يقول بنفس الغموض:

- المخلوق الذي وجد في نفسه الرجولة لأن يسخر من السيوف ومن حملة السيوف قال إن الرجولة الحقيقية هي أن يضبط الرّجل هواه ويسيطر على رغباته.

هب الأول:

- هراء. لن يكون الصحراوي رجلاً إذا لم يعشق الحسان، ولن يعشق الحسان إذا لم يشارك في الغزوات. ولن يشارك في الغزوات إذا لم ينل سيفاً.

اعترض الأقصر قامة بنفس البرود:

- هذه عناصر لا تنفع في «واو». هذه عناصر لا معنى لها بالنسبة لمن نوى أن يركن إلى «واو» ويجعل من مقامها نهاية المطاف.
- للنبل معنى في كل مكان، للفروسية والرجولة والبطولة معانٍ حتى في «واو».
- أخشى أن هناك لن ينفع غير التسليم.
- التسليم؟

ثم توقف. التفت إلى رفيقه القصير. تفحّصه تحت لثامه كأنه

www.ibtesama.com

يكتشفه لأول مرة. هتف كأنه اكتشف قارة:

ـ ها.. لقد فهمت. أنت من أنصار الضّب. لا مكان لمريدي المسخ في مسيرة الله. اذهب من هنا.

جرّد سيفه وهجم عليه.

ـ 6 ـ

جاء دور الشيوخ.

مشوا في آخر الطابور. بعضهم حرص أن يرتدي اللباس الأزرق احتفاء بالمناسبة، واكتفى الفريق الآخر باللباس الأبيض ليس زهداً في الشعائر ولكن لأن المفاجأة لم تتح لهم الفرصة كي يبالغوا في الطقوس. وحتى الذين مشوا وراء الركب باللباس الجليل كانوا من فئة المعمرين الذين تحصّنوا بثياب الفرح تحسباً للميعاد وانتظاراً لهذا اليوم المهيب الذي انتظروه، من خلال الأسلاف، منذ الأزل. في آخر الطابور سار أحد هؤلاء المعمرين الذين ناهزوا المائة أو تجاوزوها بقليل. لم يكن مقوّس الظهر، ولكن أنفاسه المتلاحقة، اللاهثة، هي التي فضحته وأومأت للجميع بأن لهفته في ملاحقة وانتهيط ما هي إلا يأس من الحياة ودنو من الهاوية.

اقترب من المعمر اللاهث شيخ آخر. رفيع القامة، قوي البُنْيَة، واثق الأنفاس. خاطب المعمّر:

ـ لا أعرف ما الذي يحمّل شيخ مثلك ويجعل منه عضواً في

www.ibtesama.com

موكب الرعاع.

أجاب المعمّر وقد ازدادت أنفاسه تلاحقاً:

- وهل يطمع الصحراوي بفوز يعادل الوصول إلى «واو»؟
- هل أنت على يقين أيضاً أن وانتهيط يسير في الطريق إلى واو؟
- إلى أين يمكن أن يسير وانتهيط؟
- ثمة من يشكك في ذلك!

سكت المعمّر لحظة. شحن صدره بالهواء. قال:

- لا يشكك في هذا الأمر سوى الضّب وأتباعه. الضّب يشكك في كل شيء لأنه مخلوق كريه وحاقد.
- البعض يقول إنه زاهد.

قال المعمّر متعجباً:

- لا يرى فرقاً بين الزّاهد والحاقد إلا البلهاء المخدوعين ببدعة الضّب الداعية لقطع الأمل والاعتصام برؤوس الحجارة.

أخفى الشيخ الرفيع ابتسامة خبيثة بطرف اللثام قبل أن يواصل الحوار:

- ما يدهشني ليس لهاث الحكماء أمثالك وراء شبح مجهول الهوية والأصل، ولكن ماذا يمكن أن يجنيه شيخ وقور مثلك في واحة بعيدة، موعودة، مستحيلة، مثل واو؟.

احتجّ المعمّر:

www.ibtesama.com

ـ وماذا يمكن أن يجنيه أمثالي غير السكينة والحكمة؟

ضحك الرفيع. قال بلهجة مازحة:

ـ السكينة والحكمة؟ فيما يتعلّق بالسكينة أظن أنك لن تجدها في واو، ولا في أي مكان إذا لم تجدها في الصحراء الخالدة. أما الحكمة فاللهم أجرنا.

سأل المعمر:

ـ وما الاعتراض على الحكمة أيضاً؟ هل اضطر أن أرد على تجديف الضّب حتى وأنا أسير في الحرم؟

ضحك الرفيع مرّة أخرى. قال:

ـ يقتل الصحراوي نفسه في شبابه جرياً وراء العشق والنساء، ويقتل نفسه في شيخوخته جرياً وراء الحكمة.

ـ لا يجد ذريعة للاعتراض على الحكمة إلاّ الضّب، فهل أنت من أتباعه، أم أنك من سلالته؟

ولكن الرفيع واصل كأنه لم ينتبه لمعارضة المعمّر الجليل:

ـ أنا لا أرى حكمة أعظم من تسليم زمام الأمر للصحراء. يوقظني النسيم البحري في الفجر. أشاهد انفصال جسد السماء عن جسد معشوقته الصحراء. من الانفصال الخجول يولد الضوء، فتغني العصافير موّال الميلاد والفرح. أغني معها حتى تكبر المفاجأة وتتحول، بأشعة الشمس، إلى نهار. انزل

www.ibtesama.com

الوادي واستنشق أعذب عطر في زهرة الرّتم. أسكر. يمتلىء صدري بوجْدٍ ينافس وجْد دراويش الزاوية القادرية. أجذب وأرقص وأهرع إلى السهل فتكشف لي الصحراء عن صدرها وتعطيني كنزها. كنزها الحقيقي وليس كنز التبر المزيف، المشؤوم. تخرج لي من القُلاع ترفاسة مصنوعة من سحر ربّي. في الليل أتوسّد يدي فيهدهدني القمر ويمسح على جبيني نسيم المساء البحري فتنتظم أنفاسي وأنسحب من بدني وألتحق بالله. أظلّ هناك حتى فجر اليوم التالي. فهل يستطيع شيخنا الجليل أن يجد في واو أحكم من هذه الشريعة؟ بل هل يشك شيخنا أن هذه هي «واو» الحقيقية وليس «واو» الوهم التي يسعى إليها البلهاء؟

توقّف المعمّر لاهثاً. جحظت عيناه. لمعت مقلتاه بالغضب:

ـ هل أنت من أتباع الضّب؟ هل أرسلك الكريه لتفسد رحلتنا؟

أشاح عنه بوجهه وتحرّك خلف الرّكب.

ـ 7 ـ

مضى الموكب الجليل يشق الصحراء الأبدية. يقطع السهول اللانهائية ويصعد الروابي العارية والجبال المسلّحة بحجارة لها مخالب الوحوش. ينزل السفوح المفروشة بالحصى والتربة الرمادية، أو يسلك الوديان الجدباء القاسية، الممتدة إلى الأبد. تساقطت القرابين والضحايا ولكن السعي المقدّس استمر.

www.ibtesama.com

ولكن الرحلة لم تتواصل في المكان وحده، ولكنها استمرت في قرينه الزمان. تدفقت الأيام كالسراب الصحراوي اللعوب، وتملّص الزمان المراوغ من قبضة البؤساء. وعندما يفلت زمام الزمان ويقرر أن يتولى قيادة المسيرة فإنه قادر أن يضع السعاة في خانة أخرى. في واو أخرى. هلكت قبيلة الصحراء، قبل أن تبلغ واو الميعاد، ولكن وانتهيط المهيب واصل مسيرته المدهشة، ومضى يشق الأفق.

فوق قمم الجبال الزرق، عند مرداة الحجر، راقبه الضّب بحزن. فاضت من عينه دمعة شفقة على مصير القبيلة.

ليماسول (قبرص)
1991 /3 /30

www.ibtesama.com

رواية أخرى لسيرة وانتهيط

www.ibtesama.com

منتدى مجلة الإبتسامة
www.ibtesama.com
مايا شوقي

www.ibtesama.com

عندما تخلّص من ألسنة السّراب، وتبدّى للقبيلة، استقبلته الحسان بالزغاريد، وهرع إليه الصبيان وهتفوا بحياته طويلاً. خرج الشيوخ من مخابئهم، ولكن اكتفوا بالفرجة لأن الحياء منعهم من الذهاب لمعانقته.

نحروا له الذبائح. غنّوا على شرفه ورقصوا.

لم تسعهم الصحراء الكبرى من الفرح، كما أعجزتهم الحيلة في أن يعبّروا له عن هذا الفرح. في هزيع الليل الأوسط غلب النوم الصبيان وهجع النجع. زحف إليه الشيوخ وأحاطوا به.

قال الزعيم:

- الآن حان الوقت كي تخبرنا بما انتظرناه طوال الحياة، كما انتظره آباؤنا وأجدادنا وأجداد أجدادنا من قبلنا.

تبادل نظرة مع شيوخ بقية العشائر فهزّوا له عماماتهم علامة الموافقة. أضاف الزعيم:

www.ibtesama.com

- أجبنا عن السؤال الذي حرقنا دائماً: من نحن؟ من أين جئنا؟ وإلى أين نذهب؟ وإلى أين ينتهي بنا السبيل عندما نخرج من هذه الصحراء؟ أجبنا بالله وأطفىء في قلوبنا الحريق!

أحكم الضيف لثامه حول أنفه. هزّ عمامته البيضاء إلى اليمين ثم إلى اليسار. تناول عوداً وحفر به رموزاً غامضة على التراب. تعلقت أبصار الشيوخ به. حاول كل شيخ في الجمع ألاّ يفوّت أي حركة تصدر عن الرسول الذي نزل أخيراً بعد أن انتظروه طويلاً، طويلاً، طويلاً. والأساطير التي رواها الأسلاف عن هذا الانتظار هو ما أجّج شراهتهم وأيقظ فيهم جشعاً لأن يحفروا في الذاكرة كل حركة تأتي بها أطرافه وكل كلمة تنطق بها شفتيه.

طال صمته فواصل الزعيم:

- لا تقل أن أصلنا من الودّان والضّب وطواويس الأدغال. لا ترجّع أصول القبائل إلى عشائر الحيوان فهذا ما عرفناه قديماً ومللناه وملأ قلوبنا بالشّك واليأس. نحن نريد الحقيقة. نريد شيئاً آخر. الأصل الأوّل.

في النهاية تكلّم وانتهيط، قال بوقار وسكينة خصّ بها المولى أولياءه وحدهم:

- عليكم أن تتحملوا الشقاء إذا أردتم أن تعرفوا.

أجابت أصوات في فضول جماعي:

- لم نفهم.

www.ibtesama.com

قال الرسول السماوي بعد لحظة سكوت:

- إذا أردتم أن تفهموا عليكم أن تعرفوا، وإذا أردتم أن تعرفوا فعليكم أن تشقوا وإذا قبلتم الشقاء طريقاً فعليكم أن تتبعوني.

فسألوا بصوت طفولي، فضولي، جماعي، مرة أخرى:

- إلى أين؟

أجاب الضيف المهيب بعد سكوت أطول:

- إلى الحقيقة.

استفهم الزعيم بلهجة شكّ:

- إلى واو؟

ثم ابتسم بطفولة واعتدل في جلسته، ثم أضاف:

- لا شك أن أوان السفر إلى واو قد حان. الحقيقة في واو. وكلنا نعرف ذلك.

ولكن الضيف الجليل لم يعلّق على ملاحظته. تنقّل ببصره بين وجوههم. تفحّص عيونهم. في عينيه لمع وميض خفي.

تكلّم أحد الشيوخ باستفسار:

- متى نتوكل؟

هنا ومض تصميم المهاجرين الأبديين في عيني الضيف. تصميم تلك الفئة من المخلوقات التي لم تعرف سوى السفر، ولم تجد

www.ibtesama.com

سعادة إلا في السفر. السفر هو حريتها وحقيقة حياتها. قال المهاجر:

ـ غداً. خير البرّ عاجله.

سرت همهمة بين الجماعة. رفع إليه الزعيم سؤالاً خجولاً:

ـ وهل تتطلب معرفة الأصل أن نذهب جميعاً؟ أقصد الأطفال والنساء والشيوخ؟

رد الضيف مقاطعاً، مستنكراً:

ـ وهل تتوقع أن تفوز بالمعرفة بسهولة؟ عليكم أن تشقوا جميعاً إذا أردتم أن تقفوا على الحقيقة جميعاً.

ردّد الشيوخ بتسليم:

ـ قبلنا. نحن على استعداد أن نهلك جميعاً في سبيل أن نطفىء الحريق ونجيب على أقدم سؤال في الصحراء.

في الصباح تحركت القافلة.

ساد الهرج طويلاً قبل أن ينطلق الموكب.

تقدمه الرسول السماوي على أتانه البيضاء. خلفه سارت الجموع.

امتدّت الصحراء. فوق العراء ركض سراب لعوب. تمدّدت المسافات. توالدت الخلوات. هدّد الأفق برحلة أبديّة. بكت الجنّيات في كهوف السلسلة الجبليّة الزرقاء. ناحت الحوريات في القمم ونعت النسل والأصل. مشى وراء القبيلة عجائز الودّان، كما

www.ibtesama.com

تبعتها جموع الذئاب والغزلان. فوق رأس المرداة فزّت من عين الضّب دمعة كبيرة، ولكنه لم يتحرّك خطوة واحدة وراء القافلة.

في المكان المعلوم توقف وانتهيط. ترجّل عن الحمارة البيضاء وتجوّل في المكان. نزل المرتفع وتفقّد قطعة أرض موحشة، رمادية، سودتها الشمس أو البراكين وربما الرّماد المتخلّف عن قبائل الأسلاف، تقع بين مرتفعين جليلين. في سفوح المرتفعين تبعثرت قبور الأوّلين المستديرة، المغطاة بألواح مصقولة من الحجارة. أمر الرسول أن تنحر الذبائح في السهل المخنوق بين المرتفعين، على أن تُسقى المقابر بدم الأضاحي. ثم أشرف بنفسه على إعداد بساط عجمي مهيب على طول السّهل. قال: «هنا نقيم وليمة القُرْبَى». لم يفهم أحد، ولكن الطريق إلى الفهم يمرّ عبر المعرفة، والمعرفة تمر عبر الشقاء. والشقاء ثمن الحقيقة. والحقيقة ما زالت بعيدة، لأن الطريق إليها لم يبدأ بعد. جمعهم الرسول فوق البساط. وقرأ على رؤوسهم تعاويذ مجوسية (أو ربما سماوية) لم يسمعوا بمثلها من قبل. ثم رفع رأسه إلى السماء وسأل بصوت غاضب:

- من منكم يريد الحقيقة؟ من منكم أراد أن يعرف الأصل من الفصل؟

فأجابه السّهل كلّه:

- نحن يا مولانا. كلنا نريد الحقيقة يا مولانا. كلنا على استعداد أن نضحّي بالفصل إذا كان ذلك ثمناً ضرورياً لمعرفة الأصل.

www.ibtesama.com

انهار وانتهيط فجأة وركع على ركبتيه. قال بعينين جاحظتين:

ـ اعلموا إذن أن الأصل هنا! هنا! هنا!

كان يضرب الأرض بقبضته وهو يهتف: «هنا. هنا. هنا». ولم يفق القوم من دهشتهم حتى وجدوا الرسول يقفز جانباً ويسحب البساط العجمي من تحتهم. تزلزلت الصحراء. قعقعت السماء. انهار الجبل البعيد. فتحت الأرض فماً مظلماً، بشعاً، جشعاً. و... ابتلعت القبيلة. تقاطروا في الهاوية في رحلة العودة إلى الأصل، ووقف الرسول يقهقه كالمجنون. ردّدت الصحراء قهقهته الشيطانية، المهيبة.

موسكو

1991 /4 /14

www.ibtesama.com

مؤلفات إبراهيم الكوني

1 ـ الصلاة خارج نطاق الأوقات الخمسة (قصص) 1974.

2 ـ جرعة من دم (قصص) 1983.

3 ـ شجرة الرّتم (قصص) 1986.

4 ـ الخسوف رباعية روائية، 1 ـ البئر، طبعة ثانية 1991.

5 ـ الخسوف رباعية روائية، 2 ـ الواحة، طبعة ثانية 1991.

6 ـ الخسوف رباعية روائية، 3 ـ أخبار الطوفان الثاني، طبعة ثانية 1991.

7 ـ الخسوف رباعية روائية، 4 ـ نداء الوقواق (رواية).

8 ـ المجوس، (رواية) ج1 ـ ج2، طبعة ثانية 1992.

9 ـ القفص، (قصص) طبعة ثالثة 1992.

10 ـ نزيف الحجر، (رواية) طبعة ثالثة 1992.

11 ـ التّبر (رواية) 1992.

12 ـ السّحرة (رواية) ج1 1994/ ج2 1995.

13 ـ الخروج الأول، طبعة أولى 1992.

14 ـ خريف الدرويش (رواية ـ قصص ـ أساطير) 1994.

15 ـ فتنة الذؤان (الرواية الأولى من ثنائية «خضراء الدمن») 1995.

16 ـ الفم (رواية) 1994.

17 ـ الربة الحجرية (ونصوص أخرى) 1992.

18 ـ ديوان الثر البرّي، (أساطير) طبعة ثانية 1998.

19 ـ وطن الرؤى السماوية (قصص ـ أساطير) طبعة ثانية 1998.

20 ـ برّ الخيتعور (رواية) 1997.

21 ـ واو الصّغرى (رواية) تحت الطبع.

www.ibtesama.com

الفهرس

وطن الرؤى السماوية 5
الفـخ 49
البرزخ 101
مسلك التّراب 111
الطريق إلى «واو» 127
رواية أخرى لسيرة وانتهيط 143

www.ibtesama.com

منتدى مجلة الإبتسامة
www.ibtesama.com
مايا شوقي

www.ibtesama.com

www.ibtesama.com

الغلاف: علي شمس الدين

وطن الرؤى السماوية

قصص تتخلل العناصر ومشاعر الأشياء والكائنات. هو إذن أدب يؤنسن ويُروْحن الطبيعة والكون، ومن هنا طابع الإشراق والصوفية فيه، بأسلوب يفتح النص ويُشْرع ألغاز الإنسان المعاصر ومخاوفه على رياح الأسطورة.

يتنكّب إبراهيم الكوني مهمة تنقية روح الإنسان من عجرفتها ووحشيتها من خلال استقراء التفاصيل الصحراوية.

الدار الجماهيرية
للنشر والتوزيع والإعلان

مصراته ـ ص.ب. 17459 ـ مبرق 30098 مطبوعات ـ هاتف: 614418 ـ برید مصور 614816 ـ 051
الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الإشتراكية العظمى

www.ibtesama.com

2014
حصرياً لـ
مجلة
الابتسامة
www.ibtesama.com
jerrydownsphoto.com